دروس (... / ....)

سورة ٥٣

حاشية

على تفسير سورة النجم

للحافظ ابن كثير رحمه الله تعالىٰ

لفضيلة الشّيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ

حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريغ

أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ (٣) إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ (٤)
عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ
(٩) فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ (١٠) مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ (١١) أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ
(١٣) عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ (١٥) إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدۡ
رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ (١٨) أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ (٢٠) أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ
(٢١) تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ (٢٢) إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن
يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ (٢٣) أَمۡ لِلۡإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ (٢٤) فَلِلَّهِ ٱلۡأٓخِرَةُ
وَٱلۡأُولَىٰ (٢٥) ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ
وَيَرۡضَىٰٓ (٢٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ (٢٧) وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا
ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا (٢٨) فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا (٢٩) ذَٰلِكَ
مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ (٣٠) وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي
ٱلۡأَرۡضِ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى (٣١) ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ
وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ
أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ (٣٢) أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ (٣٣) وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا وَأَكۡدَىٰٓ (٣٤) أَعِندَهُۥ
عِلۡمُ ٱلۡغَيۡبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ (٣٥) أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ (٣٦) وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ (٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ
أُخۡرَىٰ (٣٨) وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ (٤١)
وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ (٤٢) وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ (٤٣) وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا (٤٤) وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ
وَٱلۡأُنثَىٰ (٤٥) مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ (٤٦) وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ (٤٧) وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ (٤٨) وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ
(٤٩) وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ (٥٠) وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ (٥١) وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ (٥٢)
وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ (٥٣) فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ (٥٤) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ (٥٥) هَٰذَا نَذِيرٞ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ (٥٦) أَزِفَتِ
ٱلۡأٓزِفَةُ (٥٧) لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ (٥٨) أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ (٥٩) وَتَضۡحَكُونَ وَلَا تَبۡكُونَ (٦٠) وَأَنتُمۡ
سَٰمِدُونَ (٦١) فَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِۤ وَٱعۡبُدُواْ۩ (٦٢)﴾

بسم الله الرحمـٰن الرحيم

الدرس الأول

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالىٰ:

تَفْسِيرُ سُورَةِ النَّجْمِ
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ.

قَالَ الْبُخَارِيُّ: حَدَّثَنَا نَصْرُ بْنُ عَلِيٍّ، أَخْبَرَنِي أَبُو أَحْمَدَ، حَدَّثَنَا إِسْرَائِيلُ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنِ الْأَسْوَدِ بْنِ يَزِيدَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ: أولُ سُورَةٍ أُنْزِلَتْ فِيهَا سَجْدة: ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾، قَالَ: فَسَجَدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَسَجَدَ مَنْ خَلْفَهُ، إِلَّا رَجُلًا رَأَيْتُهُ أَخَذَ كَفًّا مِنْ تُرَاب فَسَجَدَ عَلَيْهِ، فَرَأَيْتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ قُتِل كَافِرًا، وَهُوَ أُمَيَّةُ بْنُ خَلَف.

وَقَدْ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ أَيْضًا فِي مَوَاضِعَ، وَمُسْلِمٌ، وَأَبُو دَاوُدَ، وَالنَّسَائِيُّ، مِنْ طُرُقٍ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، بِهِ. وَقَوْلُهُ فِي «الْمُمْتَنِعِ»: إِنَّهُ أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ فِي هٰذه الرِّوَايَةِ مُشْكِلٌ، فَإِنَّهُ قَدْ جَاءَ مِنْ غَيْرِ هٰذه الطَّرِيقِ أَنَّهُ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾.

قَالَ الشَّعْبِيُّ وَغَيْرُهُ: الْخَالِقُ يُقسِم بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقه، وَالْمَخْلُوقُ لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقْسِمَ إِلَّا بِالْخَالِقِ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

وَاخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾﴾ فَقَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ: يَعْنِي بِالنَّجْمِ: الثُّرَيَّا إِذَا سَقَطَتْ مَعَ الْفَجْرِ. وَكَذَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَسُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ. وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ. وَزَعَمَ السُّدِّيُّ أَنَّهَا الزُّهْرَةُ.

وَقَالَ الضَّحَّاكُ: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾﴾ إِذَا رُمِيَ بِهِ الشَّيَاطِينُ. وَهٰذا الْقَوْلُ لَهُ اتِّجَاهٌ.

وَرَوَى الْأَعْمَشُ، عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾﴾ يَعْنِي: الْقُرْآنُ إِذَا نَزَلَ. وَهٰذه الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الْوَاقِعَة].

وَقَوْلُهُ: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾﴾ هٰذا هُوَ الْمُقْسَمُ عَلَيْهِ، وَهُوَ الشَّهَادَةُ لِلرَّسُولِ، صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ

عَلَيْهِ، بِأَنَّهُ بَارٌّ رَاشِدٌ تَابِعٌ لِلْحَقِّ، لَيْسَ بِضَالٍّ، وَهُوَ: الْجَاهِلُ الَّذِي يسلك على غير طريق بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَالْغَاوِي: هُوَ الْعَالِمُ بِالْحَقِّ الْعَادِلُ عَنْهُ قَصْدًا إِلَىٰ غَيْرِهِ، فَنَزَّهَ اللهُ ﷻ رَسُولَهُ وشَرْعَه عَنْ مُشَابَهَةِ أَهْلِ الضَّلَالِ كَالنَّصَارَىٰ وَطَرَائِقِ الْيَهُودِ، وَعَنْ عِلْمِ الشَّيْءِ وَكِتْمَانِهِ وَالْعَمَلِ بِخِلَافِهِ؛ بَلْ هُوَ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَمَا بَعَثَهُ اللهُ بِهِ مِنَ الشَّرْعِ الْعَظِيمِ فِي غَايَةِ الِاسْتِقَامَةِ وَالِاعْتِدَالِ وَالسَّدَادِ؛ وَلِهٰذا قَالَ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣﴾ أَيْ: مَا يَقُولُ قَوْلًا عَنْ هَوًىٰ وَغَرَضٍ، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ أَيْ: إِنَّمَا يَقُولُ مَا أُمِرَ بِهِ، يُبَلِّغُهُ إِلَىٰ النَّاسِ كَامِلًا موفَّرًا مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ، كَمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ.

[حَدَّثَنَا يَزِيدُ، حَدَّثَنَا حَرِيز بْنُ عُثْمَانَ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مَيْسَرَة، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ؛ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «لَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ بِشَفَاعَةِ رَجُلٍ لَيْسَ بِنَبِيٍّ مثل الْحَيَّيْنِ -أَوْ: مِثْلُ أَحَدِ الْحَيَّيْنِ-: رَبِيعة ومُضَر». فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رسول الله، أو ما رَبِيعَةُ مِنْ مُضَرَ؟ قَالَ: «إِنَّمَا أَقُولُ مَا أَقُولُ».

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ بْنُ سَعِيدٍ، عَنْ عُبَيد اللهِ بْنِ الْأَخْنَسِ، أَخْبَرَنَا الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، عَنْ يُوسُفَ بْنِ مَاهَك، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: كُنْتُ أَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أُرِيدُ حِفْظَهُ، فَنَهَتْنِي قُرَيْشٌ فَقَالُوا: إِنَّكَ تَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ تَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ، وَرَسُولِ اللهِ ﷺ بَشَرٌ، يَتَكَلَّمُ فِي الْغَضَبِ. فأمسكتُ عَنِ الْكِتَابِ، فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «اكْتُبْ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا خَرَجَ مِنِّي إِلَّا حَقٌّ».

وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ عَنْ مُسَدَّد وَأَبِي بَكْرِ بْنِ أَبِي شَيْبَةَ، كِلَاهُمَا عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ سَعِيدٍ القَطَّان، بِهِ.

وَقَالَ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْبَزَّارُ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مَنْصُورٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ صَالِحٍ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنِ ابْنِ عَجْلان، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيرة، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّهُ الَّذِي مِنْ عِنْدِ اللهِ، فَهُوَ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ». ثُمَّ قَالَ: لَا نَعْلَمُهُ يُرْوَىٰ إِلَّا بِهٰذا الْإِسْنَادِ.

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا يُونُسُ، حَدَّثَنَا لَيْثٌ، عَنْ مُحَمَّدٍ، عَنْ سَعِيدُ بْنُ أَبِي سَعِيدٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أنه قَالَ: «لَا أَقُولُ إِلَّا حَقًّا». قَالَ بَعْضُ أَصْحَابِهِ: فَإِنَّكَ تُدَاعِبُنَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «إني لا أقول إلا حقا».]

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

الْحَمْدُ لله، والصَّلَاةُ والسَّلَامُ علىٰ رسول الله، وعلىٰ آله، وصحبه، ومن اهتدىٰ بِهُدَاهُ.

اللّٰهمَّ إنا نَسْأَلُكَ عِلْمًا نافعًا، وعملًا صالحًا، وقَلْبًا خَاشِعًا، اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا ما يَنْفَعُنَا، وانْفَعْنَا بما عَلَّمْتَنَا، وزِدْنَا من الْعِلْمِ والْعَمَلِ، وأنت أرحم الراحمين.

هٰذه السورة سورة النَّجْمِ سُمِّيَتْ بذلك لِذْكِرِ النَّجْمِ في مَطْلَعِهَا، وأسماءُ السُّوَرِ للتَّمْييزِ ما بين سورةٍ وسورةٍ، قَدْ يَكُونُ ذِكْرُ النَّجْمِ في غيرها؛ ولكنها سُمِّيَتْ به للتمييز، كما أن غيرها سُمِّيَ باسمٍ آخَرَ لِشَيْءٍ اشتملت عليه السورة.

وأسماء السور ليست تَوْقِيفِيَّةً؛ بل هي مما يدخل فيه الاجتهاد لأنها تَعْرِيفِيَّةٌ، ولهٰذا ذهب جماعة من الصحابة والتابعين إلىٰ أنه لا يُقَالُ: سورة كذا. لأنها لم تُسَمَّ بذلك في كل السُّوَرِ من عند الله جل وعلا، قالوا: والْأَوْلَىٰ أن يقال: السُّورَةُ التي يُذْكَرُ فيها كذا، السورةُ التي يُذكرُ فيها النَّجْمُ، السُّورَةُ التي تُذْكَرُ فيها الواقعة، السُّورَةُ التي يُذْكَرُ فيها الْحَدِيدُ، السُّورَةُ التي يُذْكَرُ فيها البقرة، وهٰذا منهم مصير منهم إلىٰ أن أسماء الصور للتعريف كما هو معلوم في موضعه من علوم القرآن، والإضافة لا بأس بها فنقول: سورة النَّجْمِ، سورة البقرة، لأن الإضافة كما هو معلوم من أَغْرَاضِهَا التَّخْصِيصُ، فهٰذه السُّورَةُ خُصِّصَتْ بهٰذا الاسم الذي هو النَّجْمُ.

والنَّجْمُ في القرآن أَتَىٰ علىٰ عِدَّةِ معانٍ:

المعنىٰ الأول: جاء بمعنىٰ النَّجْمِ المعروف، والكَوَاكِبِ المعروفة في السماء، وفي القرآن الكواكب والنجوم بمعنًى واحدٍ لا يُفَرَّقُ فيه بين النُّجُومِ والْكَوَاكِبِ بأن النجم ما له إضاءة، والكوكب ما ليس له إضاءة بنفسه، فهو تَفْرِيقٌ عند ذَوِي العلوم الخاصة؛ بل النجم والكوكب بمعنىٰ واحد ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢﴾[الانفطار]، هٰذا في الجملة؛ أن النجوم والكواكب بمعنىٰ واحد، ويدخل فيها النُّجُومُ السَّيَّارَةُ المعروفة، ويدخل فيها الثَّوَابِتُ كما هو اصطلاح أهل الْهَيْئَةِ في ذلك وأهل الفلك القدماء، فالذي تَرَاها في السماء في الليل تُسَمَّىٰ نجومًا، سواء أكان منها المريخ، والمشترىٰ، والزُّهْرَةُ، أو كان من النجوم التي هي الْبُرُوجُ مثل: الثُّرَيَّا، والحوت، إلىٰ آخره.

ولهٰذا اختلف العلماء، فمنهم من قال: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ الذي هو الثُّرَيَّا، أو الزُّهْرَةُ، أو كذا، أو كذا لدخول الاسم علىٰ الجميع، ثم النظر في مسألة الاختصاص بالهُوِيّ.

المعنىٰ الثاني للنَّجْمِ في القرآن: الشَّجَرُ الذي لا سَاقَ له، فإن ما يَنْبُتُ في الأرض نوعان: شيء له سَاقٌ

وهو الشَّجَرُ، وشيء لا ساق له وهو النَّجْمُ، وهٰذا فيه التفسير المعروف في سورة الرَّحمٰن في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦﴾ [الرَّحمٰن] فَفُسِّرَ النَّجْم هنا إذ قُرِنَ بالشَّجَرِ لأن النجم ما لا ساق له، لا يكون لها ارتفاع، والشجر ما له ساق؛ قد يكون عَظِيمًا يَصِيرُ دَوْحَةً، أو يكون صَغِيرًا فتَصِيرُ جَزْلَةً. وأشباهه، فالشجر أنواع، فالشجر جِنْسٌ، والنَّجْمُ كذلك جِنْسٌ.

والمعنىٰ الثالث للنَّجْمِ في القرآن: هو ما اختص بِقِسْمَةٍ، فإذا كان شيء يختص بِقِسْمَةٍ يقال لهٰذه الأقسام: نُجُومٌ. ويقال للقِسْمِ: نَجْمٌ، بمعنىٰ حصة أو بمعنىٰ قسم نصيب، وهٰذا هو معنىٰ قولهم: نَزَلَ القرآنُ مُنَجَّمًا. يعني: لم ينزل جُمْلَةً واحدةً، وإنما نَزَلَ مُقَسَّمًا علىٰ حِصَصٍ مختلفة في الزمان والمكان، وهٰذا الْمَعْنَىٰ فُسِّرَ به قوله جل وعلا: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦﴾ [الواقعة]، فَفُسِّرَتِ النُّجُومُ هُنَا أنها نُجُومُ تَنْزِيلِ القرآن، وفيه حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا الموقوف عليه: «نَزَلَ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، ثُمَّ نَزَلَ نُجُومًا بَعْدُ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ» يعني: مُفَرَّقًا.

وهو معنىٰ قوله جل وعلا: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ [الإسراء:١٠٦] فَرَقْنَاهُ أي: أَنْزَلْنَاهُ نُجُومًا، لم يَنْزِلْ جُمْلَةً واحدة.

إذا تَبَيَّنَ ذلك فهٰذه قاعدة في اختلاف السَّلَفِ في التَّفْسِيرِ، يَخْتَلِفُونَ في التفسير في آية، لأن الْمُفَسِّرَ يَنْظُرُ إلىٰ مَوَارِدِ مَجِيءِ الكلمة في القرآن، فيأتي هٰذا بوجْهٍ، وهٰذا بَوِجْهٍ، لإدخاله معنىٰ هٰذه الكلمة في أحد الْمَعْانِي، فإذا نظر في الآية رَجَّحَ دُخُولَ هٰذه الآية في معنىٰ من المعاني التي جاءت في القرآن فَسَّرَهَا بهٰذا التفسير.

لهٰذا اخْتُلِفَ في تفسير هٰذه الآية: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ علىٰ الأقوال الثلاثة:

القول الأول: النَّجْمُ هو النَّجْمُ المعروفُ، واختلفوا: هل هو الْمُشْتَرَىٰ، أو الزُّهْرَةُ، أو النجم العادي، إذا رُجِمَ بِهِ.. إلىٰ آخره، هٰذه كلها راجعة إلىٰ القول الأول.

القول الثاني: أن النَّجْمَ إذا هَوَىٰ هو القرآن.

والراجِحُ من القولين أنَّ النَّجْمَ هنا هو النُّجُومُ التي تَنْقَضُّ، وذلك لأنها آية من الآيات ظاهرة تُرَىٰ في السماء، ويُنَاسِبُ ذلك أن هٰذه السُّورَةَ فيها ذِكْرُ الْوَحْيِ، وهو من مقاصد السُّوَرِ الْمَكِّيَّةِ، ذِكْرُ الوحْي وإقامة الآيات عليه كما قال جل وعلا هنا: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ

﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝٥ ...﴾ الآيات، فَذِكْرُ الوحي هٰذا ذُكِرَ قَبْلَهُ ما يُحْرَسُ به الوَحْيُ ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾، لأنهم قالوا: إنَّ الذي يَأْتِيهِ كهَانَةٌ، أو سِحْرٌ، وهٰذا كله من صَنِيعِ الشَّيَاطِينِ والْجِنِّ التي تَسْتَرِقُ السَّمْعَ، فَبَيَّنَ جل وعلا أن النُّجُومَ تَحْرُسُ الوَحْيَ من أن يُؤْخَذَ ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ يعني لِحِرَاسَةِ الْوَحْيِ، وهٰذا النَّجْمُ المقصود به النُّجُومُ والشُّهُبُ الْمَعْرُوفَةُ كما قال تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ ۝١٨﴾[الحجر].

فقوله جل وعلا هنا: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ هو جوابُ الْقَسَمِ، يعني: الأَمْرُ الذي لِأَجْلِهِ أَقْسَمَ بالنجم هو نَفْيُ الضَّلَالِ ونَفْيِ الْغِوَايَةِ عن النبي عليه الصلاة والسلام، ونَفْيِ الضَّلَالِ والْغِوْايَةِ مُتْعَلِّقَةٌ بالْوَحْيِ الذي جاءه، وأنه ليس بِكَهَانَةٍ، ولهٰذا أَقْسَمَ بالنَّجْمِ حَامِي الوحي من أن يكون من عند غيرِ الله جل وعلا، أو أن يَكُونَ وَحْيٌ، أو أَنْ يَكُونَ من الشياطين.

ذَكَرَ الْقَرْآنُ هنا الْقَاعِدَةَ المعروفة، وهي: أن الله جل وعلا له أن يقسم بما شاء من خلقه: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾، فأقسم الله جل وعلا بالنَّجْمِ، أما الْمَخْلُوقُ فليس له أن يُقْسِمَ إلا بالله جل وعلا.

والْغَرَضَ مِنَ الْقَسَمِ هو ذِكْرُ الْمُقْسَمِ عَلَيْهِ، يعني ذِكْرَ جَوَابِ القسم، والْمُقْسَم بِهِ لا بُدَّ أن يكون شيئا فيه ما يَلْفِتُ إلىٰ الْمُقْسَمِ عليه الذي هو جواب القسم، فلذلك لا يجوز للمخلوق أن يُعَظِّمَ إلا الله جل وعلا، ولا يجوز له أن يَلْفِتَ الانتباه ولا أن يُؤَكِّدَ الْكَلَامَ بذكر غير الله جل وعلا، والله ﷻ آياته كثيرة، فليلفت إلىٰ عظم الكلام وعظم المقسم عليه بالقسم بأنواع آياته العظيمة، وَكُلُّ ما أَقْسَمَ الله جل وعلا به فهو آيةٌ من آيَاتِهِ سبحانه، إذ ربنا -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- دل علىٰ عظم بعض مخلوقاته بالقسم بها، والأشياء التي أَقْسَمَ الله جل وعلا من مخلوقاته هٰذه آيات التأمل فيها يدل علىٰ وحدانية الله وعَظَمَةِ رُبُوبِيَّتِهِ.

قوله تعالىٰ هنا: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ تَفْرِيقُهُ بين الضَّلَالِ والْإِغْوَاءِ وَاضِحٌ، لأن الْغِوَايَةَ لا تكون إلا بَعْدَ الْعِلْمِ والرَّشَدِ، لا يقال: كان عَالِمًا فَضَلَّ؛ لأن الْعِلْمَ ضِدُّ الضَّلَالِ، فَكَوْنُهُ صار عالِمًا وخرج من مُقْتَضَىٰ العلم إلىٰ غيره يقال له: غَوَىٰ، ولا يُقَالُ: ضَلَّ، لأنَّ الضَّالَّ هو الذي تَاهَ عن الطريق عن غَيْرِ عِلْمٍ، أما إذا تاه عن الطريق عن علم صار غاويا؛ ولهٰذا قال جل وعلا في سورة الأعراف: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ۝١٧٥﴾[الأعراف]، ولم يَقُلْ: فكان من الضَّالِّينَ؛ لأنه علم فتاهَ عن الطريق وترك بقصده وخلوده إلىٰ الأرض وركونه إليها.

فالنبي عليه الصلاة والسلام لم يَضِلَّ بأنه تَاهَ عن الطَّرِيقِ عنْ غَيْرِ عِلْمٍ، ولم يَعْلَمْ أيضًا الحق فَتَاهَ عن الطريق، وإنما عَلِمَ الْحَقَّ ولَزِمَهُ ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ [الزخرف].

فالمعنىٰ: ما ضَلَّ صاحبكم عن الحقِّ، وما غَوَىٰ فَعَلِمَ الْحَقَّ وكَتَمَهُ، بل هو علىٰ الطريق، وقَدْ عَلِمَ الحق، لِمَ ؟ لأنه لم يأتِ شيئًا من عِنْدِ نفسه، بل هو وَحْيٌ يُوحَىٰ.

و﴿عَنِ﴾ في قوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾﴾ بمعنىٰ الباء التي هي السَّبَبِيَّةُ، يعني: وما ينشأ ما تكلمَ به كان بِسَبَبِ الْهَوَىٰ، ويقال: نَطَقَ بالشيء عن الشيء، يعني: نَطَقَ بِمَا تَكَلَّمَ به عن مرادٍ بسبب كذا، فيؤتي بـ(عن) في ذلك للدلالة علىٰ المعاني الباطنة.

قوله تعالىٰ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ الْوَحْيُ في القرآن، كما هو في اللغة: الْإِعْلَامُ في خَفَاءٍ، الْإِعْلَامِ بِالْخَبَرِ، أو بالأمرِ، أو بالنهىٰ في خَفَاءٍ، فالسِّرُّ فيما بينك وبين فلان يَصِيرُ وَحْيًا، لأنه إِعْلَامٌ في خَفَاءٍ.

والكتابة أيضًا وَحْيٌ، لِأَنَّهَا إِعْلَامٌ في خَفَاءٍ.

والْإِلْهَامُ وَحْيٌ لأنه أَمْرٌ ونَهْيٌ، وإِعْلَامٌ بالأمر والنَّهْي في خفاء، كما قال جل وعلا: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾ [مريم] أوحىٰ إليهم إما بالْإِشَارَةِ، أو بِالْكِتَابَةِ، ولهٰذا تُسَمَّىٰ الأقلامُ عِنْدَ العرب وُحِيًّا، لأن بها يَكُونُ الإعلامُ في خَفَاءٍ من غير أن يَعْرِفَ أحد.

وكذلك الإلهام بأنواعه: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل:٦٨]، هٰذا إِلْهَامٌ، لأَنَّهُ إِعْلَامٌ عن طريق الخفاء.

وإذا كان كذلك: لم يتحصل في مسألة الوحي وكلام الله جل وعلا أن الوحيَ لابد فيه من كلام، هٰذا غيرُ مراد، الوحي إعلام في خفاء، يَحْصُلُ الإعلام الإعلامُ بكتابةٍ، أو إشارة، أو سِرٍّ في الأُذُنِ، يحصل بأي طريقة حديثة أو قديمة، كل هٰذا يَدْخُلُ لغةً في الوحي، ولهٰذا سُمِّي ما يَنْزِلُ به الْمَلَكُ والنَّامُوسُ علىٰ النبي والرسول وَحْيًا بأنواعه المذكورة في آخر سورة الشورىٰ، سُمِّيَ وَحْيًا لأنه لا أَحَدَ يَعْلَمُ به إلا الرسول، فيأتيه الْمَلَكُ فَيُوحِي إليه والنَّاسُ بِجَنْبِ الرسول، لا يَدْرُونَ ماذا أُوحِيَ إليه حتىٰ يَفْصِمَ عن الرَّسُولِ، فَيُخْبِرُ بما أوحىٰ الله جل وعلا إليه، ولهٰذا قال ﷻ هنا: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ و﴿إِنْ﴾ هنا بمعنىٰ: ما. أي: ما هو إلا وَحْيٌ يُوحَىٰ.

و(ما) و(إلا) هٰذه للحصر، حَصْرُ الأول في الثاني، حصر محمد عليه الصلاة والسلام في الوَحْي، وعندما قال سبحانه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ﴾ يعني: في نُطْقِهِ، فَنُطْقُ مُحَمَّدٍ عليه الصلاة والسلام

وَحْيٍ يُوحَىٰ، فهٰذا حَصْرٌ لجميع حالاته عليه الصلاة والسلام، فما نَطَقَ بِهِ عليه الصلاة والسلام مُبَلِّغًا إياه لِلْأُمَّةِ فَهُوَ وَحْيٌ أَوْحَاهُ الله جل وعلا إليه، سواء أكان قرآنًا، أو حديثًا قُدْسِيًّا، أو سنة نَبَوِيَّة، فكُلُّ ذلك وَحْيٌ من الله جل وعلا، قد يقول الشيء عليه الصلاة والسلام عن اجتهاد ولكن لا يُقَرُّ علىٰ ذلك، فما أَخْبَرَ به عليه الصلاة والسلام ومَضَىٰ دُونَ بيانٍ أنه ليس بمراد، أو نَسْخٍ له، أو بيانِ الاجتهاد فيه، فهٰذا كله من الوحي، سواء أكان من القرآن أو من السُّنَّةِ، كما ثبت في السُّنَنِ أنه عليه الصلاة والسلام قال: «أَلا إِنِّي أُوتِيتُ القُرآنَ ومِثلَهُ مَعَهُ» وصَحَّ عن حَسَّانَ بن عَطِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ وهو من التابعين أنه كان يقول: (كَانَ جِبْرِيلُ يَنْزِلُ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ بِالسُّنَّةِ، كَمَا يَنْزِلُ عَلَيْهِ بِالْقُرْآنِ)، فهو عليه الصلاة والسلام وحي يُوحَىٰ عليه الصلاة والسلام.

ويكفي هٰذا..

الدرس الثاني

﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾.

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنَّهُ عَلَّمه الَّذِي جَاءَ بِهِ إِلَىٰ النَّاسِ ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾، وَهُوَ جِبْرِيلُ عليه السلام كَمَا قَالَ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝٢١﴾ [التَّكْوِير].

وَقَالَ هَاهُنَا: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أَيْ: ذُو قُوَّةٍ. قَالَهُ مُجَاهِدٌ، وَالْحَسَنُ، وَابْنُ زَيْدٍ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ذُو مَنْظَرٍ حَسَنٍ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: ذُو خَلْقٍ طَوِيلٍ حَسَنٍ.

وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ؛ فَإِنَّهُ عليه السلام ذُو مَنْظَرٍ حَسَنٍ، وَقُوَّةٍ شَدِيدَةٍ. وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَابْنِ عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لغنيٍّ، وَلَا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ».

وَقَوْلُهُ: ﴿فَٱسْتَوَىٰ ۝٦﴾ يَعْنِي: جِبْرِيلَ عليه السلام. قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وقَتَادَةُ، وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ.

﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧﴾ يَعْنِي: جِبْرِيلَ، اسْتَوَىٰ فِي الْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ. قَالَهُ عِكْرِمَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ. قَالَ عِكْرِمَةُ: وَالْأُفُقُ الْأَعْلَىٰ: الَّذِي يَأْتِي مِنْهُ الصُّبْحُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ مَطْلَعُ الشَّمْسِ. وَقَالَ قَتَادَةُ: هُوَ الَّذِي يَأْتِي مِنْهُ النَّهَارُ. وَكَذَا قَالَ ابْنُ زَيْدٍ، وَغَيْرُهُمْ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبُو زُرْعَة، حَدَّثَنَا مُصَرِّف بْنُ عَمْرٍو الْيَامِيُّ أَبُو الْقَاسِمِ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ طَلْحَةَ بْنِ مُصَرِّفٍ، حَدَّثَنِي أَبِي، عَنِ الْوَلِيدِ -هُوَ ابْنُ قَيْسٍ- عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ أَبِي الكَهْتَلَة أَظُنُّهُ ذَكَرَهُ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمْ يَرَ جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ إِلَّا مَرَّتَيْنِ، أَمَّا وَاحِدَةٌ فَإِنَّهُ سَأَلَهُ أَنْ يَرَاهُ فِي صُورَتِهِ فَسَدَّ الْأُفُقَ. وَأَمَّا الثَّانِيَةُ فَإِنَّهُ كَانَ مَعَهُ حَيْثُ صَعِدَ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧﴾.

وَقَدْ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ هَاهُنَا قَوْلًا لَمْ أَرَهُ لِغَيْرِهِ، وَلَا حَكَاهُ هُوَ عَنْ أَحَدٍ، وَحَاصِلُهُ: أَنَّهُ ذَهَبَ إِلَىٰ أَنَّ الْمَعْنَىٰ: ﴿فَٱسْتَوَىٰ ۝٦﴾ أَيْ: هٰذا الشَّدِيدُ الْقُوَىٰ ذُو الْمِرَّةِ هُوَ وَمُحَمَّدٌ ﷺ ﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧﴾ أَيِ: اسْتَوَيَا جَمِيعًا بِالْأُفُقِ، وَذَلِكَ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ كَذَا قَالَ، وَلَمْ يُوَافِقْهُ أَحَدٌ عَلَىٰ ذلك. ثم شَرَعَ يُوَجِّهُ مَا قَالَ مِنْ حَيْثُ الْعَرَبِيَّةُ فَقَالَ: وَهٰذا كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ﴾ [النَّمْل:٦٧]، فَعَطَفَ بِالْآبَاءِ عَلَىٰ الْمُكَنَّىٰ فِي ﴿

كُنَّا﴾ مِنْ غَيْرِ إِظْهَارِ «نَحْنُ»، فَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ﴾ قَالَ: وَذَكَرَ الْفَرَّاءُ عَنْ بَعْضِ الْعَرَبِ أَنَّهُ أَنْشَدَهُ:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ النبعَ يَصْلُبُ عُودُه وَلَا يَسْتَوِي والخَرْوعُ المُتَقصِّفُ

وَهٰذا الَّذِي قَالَهُ مِنْ جِهَةِ الْعَرَبِيَّةِ مُتَّجِهٌ، وَلَكِنْ لَا يُسَاعِدُهُ الْمَعْنَىٰ عَلَىٰ ذَلِكَ؛ فَإِنَّ هٰذه الرُّؤْيَةَ لِجِبْرِيلَ لَمْ تَكُنْ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ؛ بَلْ قَبْلَهَا، ورسولُ اللهِ ﷺ فِي الْأَرْضِ، فَهَبَطَ عَلَيْهِ جِبْرِيلُ عليه السلام وَتَدَلَّىٰ إِلَيْهِ، فَاقْتَرَبَ مِنْهُ وَهُوَ عَلَىٰ الصُّورَةِ الَّتِي خَلَقَهُ اللهُ عَلَيْهَا، لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ، ثُمَّ رَآهُ بَعْدَ ذَلِكَ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ، يَعْنِي لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ، وَكَانَتْ هٰذه الرُّؤْيَةُ الْأُولَىٰ فِي أَوَائِلِ الْبَعْثَةِ بَعْدَ مَا جَاءَهُ جِبْرِيلُ، عليه السلام، أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَأَوْحَىٰ اللهُ إِلَيْهِ صَدْرَ سُورَةِ «اقْرَأْ»، ثُمَّ فَتَرَ الْوَحْيُ فَتْرَةً ذَهَبَ النَّبِيُّ ﷺ فيها مرارا ليتردىٰ من رؤوس الْجِبَالِ، فَكُلَّمَا هَمّ بِذَلِكَ نَادَاهُ جِبْرِيلُ مِنَ الْهَوَاءِ: «يَا مُحَمَّدُ، أَنْتَ رَسُولُ اللهِ حَقًّا، وَأَنَا جِبْرِيلُ». فَيَسْكُنُ لِذَلِكَ جَأْشُهُ، وَتَقَرُّ عَيْنُهُ، وَكُلَّمَا طَالَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ عَادَ لِمِثْلِهَا، حَتَّىٰ تَبَدّىٰ لَهُ جِبْرِيلُ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الْأَبْطَحِ فِي صُورَتِهِ الَّتِي خَلَقَهُ اللهُ عَلَيْهَا، لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ قَدْ سَدَّ عُظْمُ خَلْقِهِ الْأُفُقَ، فَاقْتَرَبَ مِنْهُ وَأَوْحَىٰ إِلَيْهِ عَنِ اللهِ، عز وجل، مَا أَمَرَهُ بِهِ، فَعَرَفَ عِنْدَ ذَلِكَ عَظَمَةَ الْمَلَكِ الَّذِي جَاءَهُ بِالرِّسَالَةِ، وَجَلَالَةَ قَدْرِه، وَعُلُوَّ مَكَانَتِهِ عِنْدَ خَالِقِهِ الَّذِي بَعَثَهُ إِلَيْهِ. فَأَمَّا الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْبَزَّارُ فِي مُسْنَدِهِ حَيْثُ قَالَ:

حَدَّثَنَا سَلَمَةُ بْنُ شَبِيبٍ، حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ، حَدَّثَنَا الْحَارِثُ بْنُ عُبَيْدٍ، عَنْ أَبِي عِمْرَانَ الْجَوْنِي، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «بَيْنَا أَنَا قَاعِدٌ إِذْ جَاءَ جِبْرِيلُ عليه السلام فَوَكَزَ بَيْنَ كَتِفَيَّ، فَقُمْتُ إِلَىٰ شَجَرَةٍ فِيهَا كَوَكْرَيِ الطَّيْرِ، فَقَعَدَ فِي أَحَدِهِمَا وَقَعَدْتُ فِي الْآخَرِ. فَسَمَتَ وَارْتَفَعَتْ حَتَّىٰ سَدَّتِ الْخَافِقَيْنِ وَأَنَا أُقَلِّبُ طَرْفِي، وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَمَسَّ السَّمَاءَ لَمَسِسْتُ، فَالْتَفَتَ إِلَيَّ جِبْرِيلُ كَأَنَّهُ [حِلْس] لاطٍ ، فعرفتُ فَضْلَ علْمه بِاللهِ عَلَيَّ. وفُتِح لِي بابٌ مِنْ أَبْوَابِ السَّمَاءِ وَرَأَيْتُ النُّورَ الْأَعْظَمَ، وَإِذَا دُونَ الْحِجَابِ [رَفْرَفَةُ] الدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ. وَأُوحِيَ إِلَيَّ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يُوحِيَ».

ثُمَّ قَالَ الْبَزَّارُ: لَا يَرْوِيهِ إِلَّا الْحَارِثُ بْنُ عُبَيْدٍ، وَكَانَ رَجُلًا مَشْهُورًا مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ.

قُلْتُ: الْحَارِثُ بْنُ عُبَيد هٰذا هُوَ أَبُو قُدَامَةَ الْإِيَادِيُّ، أَخْرَجَ لَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ إِلَّا أَنَّ ابْنَ مَعِينٍ ضعَّفه، وَقَالَ: لَيْسَ هُوَ بِشَيْءٍ. وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: مُضْطَرِبُ الْحَدِيثِ. وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ الرَّازِيُّ: كُتِبَ حَدِيثُهُ وَلَا يُحْتَجُّ بِهِ. وَقَالَ ابْنُ حِبَّانَ: كَثُرَ وَهَمه فَلَا يَجُوزُ الِاحْتِجَاجُ بِهِ إِذَا انْفَرَدَ. فَهٰذا الْحَدِيثُ مِنْ غَرَائِبِ رِوَايَاتِهِ، فَإِنَّ فِيهِ نَكَارَةً وَغَرَابَةَ أَلْفَاظٍ وَسِيَاقًا عَجِيبًا، وَلَعَلَّهُ مَنَامٌ، واللهُ أَعْلَمُ.

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا حَجَّاجٌ، حَدَّثَنَا شَرِيكٌ، عَنْ عَاصِمٌ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ: رَأَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ وَلَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ، كُلُّ جَنَاحٍ مِنْهَا قَدْ سَدّ الْأُفُقَ، يَسْقُطُ مِنْ جَنَاحِهِ مِنَ التَّهَاوِيلِ وَالدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ مَا اللهُ بِهِ عَلِيمٌ. انْفَرَدَ بِهِ أَحْمَدُ.

وَقَالَ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ بْنُ آدَمَ، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ عَيَّاشٍ، عَنْ إِدْرِيسَ بْنِ مُنَبِّه، عَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: سَأَلَ النَّبِيُّ ﷺ جِبْرِيلَ أَنْ يَرَاهُ فِي صُورَتِهِ، فَقَالَ: ادْعُ رَبَّكَ. فَدَعَا رَبَّهُ ﷻ فَطَلَعَ عَلَيْهِ سَوَادٌ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ، فَجَعَلَ يَرْتَفِعُ وَيَنْتَشِرُ، فَلَمَّا رَآهُ النَّبِيُّ ﷺ صعِق، فَأَتَاهُ فَنَعَشَه وَمَسَحَ الْبُزَاقَ عَنْ شِدْقه.

انْفَرَدَ بِهِ أَحْمَدُ. وَقَدْ رَوَاهُ ابْنُ عَسَاكِرَ فِي تَرْجَمَةِ (عُتْبَةَ بْنِ أَبِي لَهَبٍ)، مِنْ طَرِيقِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ، عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ هَبَّار بْنِ الْأَسْوَدِ قَالَ: كَانَ أَبُو لَهَبٍ وَابْنُهُ عُتْبَةُ قَدْ تَجَهَّزَا إِلَىٰ الشَّامِ، فَتَجَهَّزْتُ مَعَهُمَا، فَقَالَ ابْنُهُ عُتْبَةُ: وَاللهِ لَأَنْطَلِقَنَّ إِلَىٰ مُحَمَّدٍ وَلَأُوذِيَنَّهُ فِي رَبِّهِ، سُبْحَانَهُ، فَانْطَلَقَ حَتَّىٰ أَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ، فقال: يا محمد، هو يكفر بالذي دنىٰ فَتَدَلَّىٰ، فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ ابْعَثْ إِلَيْهِ كَلْبًا مِنْ كِلَابِكَ». ثُمَّ انْصَرَفَ عَنْهُ فَرَجَعَ إِلَىٰ أَبِيهِ فَقَالَ: يَا بُنَيَّ، مَا قُلْتَ لَهُ؟ فَذَكَرَ لَهُ مَا قَالَ لَهُ، قَالَ: فَمَا قَالَ لَكَ؟ قَالَ: قَالَ: «اللَّهُمَّ سَلِّطْ عَلَيْهِ كَلْبًا مِنْ كِلَابِكَ» قَالَ: يَا بُنَيَّ، وَاللهِ مَا آمَنُ عَلَيْكَ دُعاءه. فَسِرْنَا حَتَّىٰ نَزَلْنَا الشُّرَاةَ، وَهِيَ مأْسَدَة، وَنَزَلْنَا إِلَىٰ صَوْمَعة رَاهِبٍ، فَقَالَ الرَّاهِبُ: يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ، مَا أَنْزَلَكُمْ هٰذه الْبِلَادَ فَإِنَّهَا تَسْرَحُ الأسْدُ فِيهَا كَمَا تَسْرَحُ الْغَنَمُ؟ فَقَالَ لَنَا أَبُو لَهَبٍ: إِنَّكُمْ قَدْ عَرَفْتُمْ كِبَرَ سِنِّي وَحَقِّي، وَإِنَّ هٰذا الرَّجُلَ قَدْ دَعَا عَلَىٰ ابْنِي دَعْوَةً -وَاللهِ- مَا آمَنُهَا عَلَيْهِ، فَاجْمَعُوا مَتَاعَكُمْ إِلَىٰ هٰذه الصَّوْمَعَةِ، وَافْرِشُوا لِابْنِي عَلَيْهَا، ثُمَّ افْرِشُوا حَوْلَهَا. فَفَعَلْنَا، فَجَاءَ الْأَسَدُ فَشَمّ وُجُوهَنَا، فَلَمَّا لَمْ يَجِدْ مَا يُرِيدُ تَقَبَّضَ، فَوَثَبَ، فَإِذَا هُوَ فَوْقَ الْمَتَاعِ، فَشَمَّ وَجْهَهُ ثُمَّ هَزَمَهُ هَزْمة فَفَضخ رَأْسَهُ. فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: قَدْ عَرَفْتُ أَنَّهُ لَا يَنْفَلِتُ عَنْ دَعْوَةِ مُحَمَّدٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾ أَيْ: فَاقْتَرَبَ جِبْرِيلُ إِلَىٰ مُحَمَّدٍ لَمَّا هَبَطَ عَلَيْهِ إِلَىٰ الْأَرْضِ، حَتَّىٰ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ ﷺ قَابُ قَوْسَيْنِ أَيْ: بِقَدْرِهِمَا إِذَا مُدّا. قَالَهُ مُجَاهِدٌ، وقَتَادَةُ.

وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ بُعدُ مَا بَيْنَ وَتَرِ الْقَوْسِ إِلَىٰ كَبِدِهَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾ قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ هٰذه الصِّيغَةَ تُسْتَعْمَلُ فِي اللُّغَةِ لِإِثْبَاتِ الْمُخْبَرِ عَنْهُ وَنَفْيِ مَا زَادَ عَلَيْهِ،

كَقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [الْبَقَرَة: ٧٤]، أَيْ: مَا هِيَ بِأَلْيَنَ مِنَ الْحِجَارَةِ، بَلْ هِيَ مِثْلُهَا أَوْ تَزِيدُ عَلَيْهَا فِي الشِّدَّةِ وَالْقَسْوَةِ. وَكَذَا قَوْلُهُ: ﴿يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النِّسَاء: ٧٧]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الصَّافَّات]، أَيْ: لَيْسُوا أَقَلَّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِائَةُ أَلْفٍ حَقِيقَةً، أَوْ يَزِيدُونَ عَلَيْهَا. فَهٰذا تَحْقِيقٌ لِلْمُخْبَرِ بِهِ لَا شَكَّ وَلَا تَرَدُّدَ، فَإِنَّ هٰذا مُمْتَنِعٌ هَاهُنَا، وَهَكَذَا هٰذه الْآيَةُ: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾﴾.

وَهٰذا الَّذِي قُلْنَاهُ مِنْ أَنَّ هٰذا الْمُقْتَرِبَ الدَّانِيَ الَّذِي صَارَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ ﷺ، إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ عليه السلام هُوَ قَوْلُ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ، وَابْنِ مَسْعُودٍ، وَأَبِي ذَرٍّ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ، كَمَا سَنُورِدُ أَحَادِيثَهُمْ قَرِيبًا إِنْ شَاءَ اللهُ. وَرَوَىٰ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: «رَأَىٰ مُحَمَّدٌ رَبَّهُ بِفُؤَادِهِ مَرَّتَيْنِ». فَجَعَلَ هٰذه إِحْدَاهُمَا. وَجَاءَ فِي حَدِيثِ شَرِيكِ بْنِ أَبِي نَمِرٍ(١)، عَنْ أَنَسٍ فِي حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ: «ثُمَّ دَنَا الْجَبَّارُ رَبُّ الْعِزَّةِ فَتَدَلَّىٰ» وَلِهٰذا تَكَلَّمَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فِي مَتْنِ هٰذه الرِّوَايَةِ، وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ فِيهَا مِنَ الْغَرَابَةِ، فَإِنْ صَحَّ فَهُوَ مَحْمُولٌ عَلَىٰ وَقْتٍ آخَرَ وَقِصَّةٍ أُخْرَىٰ، لَا أَنَّهَا تَفْسِيرٌ لِهٰذه الْآيَةِ؛ فَإِنَّ هٰذه كَانَتْ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الْأَرْضِ لَا لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ؛ وَلِهٰذا قَالَ بَعْدَهُ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾، فَهٰذه هِيَ لَيْلَةُ الْإِسْرَاءِ وَالْأُولَىٰ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ.

وَقَدْ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ أَبِي الشَّوَارِبِ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ زِيَادٍ، حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ الشَّيْبَانِيُّ، حَدَّثَنَا زِرُّ بْنُ حُبَيْشٍ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ فِي هٰذه الْآيَةِ: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾﴾، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «رَأَيْتُ جِبْرِيلَ لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ».

وَقَالَ ابْنُ وَهْبٍ: حَدَّثَنَا ابْنُ لَهِيعة، عَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ، عَنْ عُرْوَة، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ أَوَّلَ شَأْنِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ رَأَىٰ فِي مَنَامِهِ جِبْرِيلَ بِأَجْيَادٍ، ثُمَّ إِنَّهُ خَرَجَ لِيَقْضِيَ حَاجَتَهُ فَصَرَخَ بِهِ جِبْرِيلُ: يَا مُحَمَّدُ، يَا مُحَمَّدُ. فَنَظَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَمِينًا وَشِمَالًا فَلَمْ يَرَ شَيْئًا -ثَلَاثًا-ثُمَّ رَفَعَ بَصَرَهُ فَإِذَا هُوَ ثَانٍ إِحْدَىٰ رِجْلَيْهِ مَعَ

---

(١) حديث شريك بن أبي نمر عن أنس في الإسراء فيه أغلاط، قد روىٰ البخاري منها قطعة كبيرة معروفة، وفيها بعض الأوهام، وأن الوهم جاء من شريك، وشريك ثقة؛ لكنه وهم في أشياء في حديث الإسراء، منها هٰذا الذي ذكره، ومسلم رحمه الله تحرىٰ في الرواية وذكر في اثناء الرواية أو في آخر الرواية أن شريكا قدم وأخر وزاد ونقص. فالمقصود أن رواية شريك هٰذه فيها أغلاط في مواضع في الإسراء، وهٰذه الألفاظ تكون شاذة، وأن أصل الحديث صحيح لٰكِن فيه ألفاظ تفرد بها شريك؛ فتكون شاذة، وقد جمع بعض الحفاظ أغلاط شريك في هٰذا تجدونها في «الفتح» في موضعها.

الْأُخْرَىٰ عَلَىٰ أُفُقِ السَّمَاءِ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، جِبْرِيلُ، جبريل -يُسكّنه- فَهَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّىٰ دَخَلَ فِي النَّاسِ، فَنَظَرَ فَلَمْ يَرَ شَيْئًا، ثُمَّ خَرَجَ مِنَ النَّاسِ، ثُمَّ نَظَرَ فَرَآهُ، فَدَخَلَ فِي النَّاسِ فَلَمْ يَرَ شَيْئًا، ثُمَّ خَرَجَ فَنَظَرَ فَرَآهُ، فَذَلِكَ قَوْلُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾ يَعْنِي جِبْرِيلُ إِلَىٰ مُحَمَّدٍ، ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾: وَيَقُولُونَ: الْقَابُ نِصْفُ الْأُصْبُعِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ذِرَاعَيْنِ كَانَ بَيْنَهُمَا.

رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ وَهْبٍ. وَفِي حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ جَابِرٍ شَاهِدٌ لِهٰذا.

وَرَوَىٰ الْبُخَارِيُّ عَنْ طَلْقِ بْنِ غَنَّامٍ، عَنْ زَائِدَةَ، عَنِ الشَّيْبَانِيِّ قَالَ: سَأَلْتُ زِرًّا عَنْ قوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَىٰ جِبْرِيلَ لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي ابْنُ بزيع الْبَغْدَادِيُّ، حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ مَنْصُورٍ، حَدَّثَنَا إِسْرَائِيلُ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾ قَالَ: رَأَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ حُلَّتَا رَفْرَفٍ، قَدْ مَلَأَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ.

فَعَلَىٰ مَا ذَكَرْنَاهُ يَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾ مَعْنَاهُ: فَأَوْحَىٰ جِبْرِيلُ إِلَىٰ عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدٍ مَا أَوْحَىٰ. أَوْ: فَأَوْحَىٰ اللهُ إِلَىٰ عَبْدِهِ مُحَمَّدٍ مَا أَوْحَىٰ بِوَاسِطَةِ جِبْرِيلَ وَكِلَا الْمَعْنَيَيْنِ صَحِيحٌ، وَقَدْ ذُكِرَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾، قَالَ: أَوْحَىٰ إِلَيْهِ: «أَلَمْ أَجِدْكَ يَتِيمًا» ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشَّرْح].

وَقَالَ غَيْرُهُ: أَوْحَىٰ اللهُ إِلَيْهِ أَنَّ الْجَنَّةَ مُحَرَّمَةٌ عَلَىٰ الْأَنْبِيَاءِ حَتَّىٰ تَدْخُلَهَا، وَعَلَىٰ الْأُمَمِ حَتَّىٰ تَدْخُلَهَا أُمَّتُكَ.

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله، وعلىٰ آله وصحبه ومن اهتدىٰ بهداه،

أما بعد؛ فهٰذه الآيات فيها ذكر معراج النبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- إلىٰ الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- وذكر عروجه ومجيء جبريل عليه السلام إليه، فبعد أن ذكر الله جل وعلا صفة نبيه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- بأنه لا ينطق عن الهوىٰ إن هو إلا وحي يوحىٰ بين جل وعلا أن الذي علمه هٰذا الوحي هو جبريل عليه

السلام نازلا به من الرب -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-، فقال جل وعلا: ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ۝٩ ﴾ هٰذه كُلُّهَا فِي صِفَةِ الْمُعَلِّمِ، وهو جبريل ﷺ الذي نَزَلَ بالْعِلْمِ إلىٰ محمد عليه الصلاة والسلام، فقوله هنا جل وعلا ﴿ عَلَّمَهُۥ ﴾ معناه: عَلَّمَ مُحَمَّدًا ﴿ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝٥ ﴾، وهو جبريل، لأَنَّهُ أَقْوَىٰ الْمَلَائِكَةِ، وأَعْظَمُ الملائكة صورة وقوة، كما وصفه سبحانه هنا بقوله: ﴿ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ۝٦ ﴾، فهٰذه ثلاث أوصاف: شدة القوة، وأنه ذُو مِرَّةٍ، والْمِرَّةُ هي الْقُوَّةُ مَعَ الْمَنْظَرِ الْحَسَنِ، والوصف الثالث: الْاسْتِوَاءُ، والاستواء معناه: كَمَالُ الأوصاف، وعُلُوُّ الأوصاف التي تمثّل القوة، كما قال جل وعلا في وصف موسىٰ ﷺ: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا ﴾ [القصص:١٤]، وقوله: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ﴾ معناه: تَكَامَلَتِ الْقُوَّةُ فيه، وصفات القوة وصفات النُّضْجِ إذا تكاملت صار الموصوف بها مُسْتَوِيًا، هٰذا راجع إلىٰ أصل معنىٰ استوىٰ في اللغة وهو الْعُلُوُّ، فإنها إذا لم تتعدَّ بـ(علىٰ) ولا بـ(إلىٰ) فإنه يكون المقصود من استوىٰ الْعُلُوَّ الذي يناسب السياق، وعُلُوُّ الصفات هنا المقصود به صفات القوة، لأنه هو الْمَعِنِيُّ بالآيتين: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ﴾ يعني في القوة والصفات، وهنا قال جل وعلا: ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ۝٦ ﴾ يعني: في القوة والصِّفَاتِ.

والقول الثاني في قوله: ﴿ فَٱسۡتَوَىٰ ۝٦ ﴾: أنه استوىٰ بالْأُفُقِ أي: علا مُتَقَدِّمًا للنبي عليه الصلاة والسلام، وكلا الْمَعْنَيَيْنِ صحيح.

قوله تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٧ ﴾ الضمير يرجع إلىٰ الْمُتَحَدَّثِ عنه وهو جبريل ﷺ، فالأصل في الضمائر أن تكون راجعة إلىٰ شيء واحد، ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٧ ﴾ كل هٰذه الضمائر راجعة إلىٰ جبريل ﷺ، فيكون معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٧ ﴾ أن جِبْرِيلَ جَاءَ بالأُفُقِ، والأفقُ الأعلىٰ من حيث نظر الإنسان أعلىٰ الآفَاقِ، والأُفُقُ هو ما يُقَابِلُكَ من جِهَةِ الْتِقَاءِ السَّمَاءِ بالأرض في وجه النَّاظِرِ.

وأما ما يكون فوق السماء، يعني في وسط السماء في كبد السماء أو مرتفعًا كثيرًا، فهٰذا لا يقال له: أُفُقٌ.

ونزل جبريل ﷺ بقوله سبحانه: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ ﴾[الضحىٰ]، رآه علىٰ صورته التي خَلَقَهُ الله عليها له سِتّمَائَة جَنَاحٍ قَدْ سَدَّ الْأُفُقَ، والمرة الثانية لما نزل جبريل إلىٰ محمد

عليه الصلاة والسلام لِيَسْرِيَ به إلىٰ المسجد الأقصىٰ، ثُمَّ ليَعْرُجَ به إلىٰ ربنا جل جلاله، وتَقَدَّسَتْ أسماؤُهُ.

القول الثاني في قوله: ﴿ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ﴾: المقصود به أنه محمدٌ عليه الصلاة والسلام، والأولُ أَظْهَرُ منه.

وقوله هنا: ﴿ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ ﴾ دنا يعني: جِبْرِيلُ عليه السلام فَتَدَلَّىٰ قَرُبَ إلىٰ محمد عليه الصلاة والسلام، ونَاسَبَ وَصْفُ جِبْرِيلَ بالتَّدَلِّي، لأنه علىٰ هيئةِ طَيْرٍ له سِتِّمِائَة جَنَاحٍ، فالملائكة خَلْقٌ عَظِيمٌ، جعل الله جل وعلا لهم تلك الأجنحةَ العظيمةَ تُنَاسِبُ التَّدَلِّي.

وأما ما جاء: أن الذي دَنَا فَتَدَلَّىٰ هو رب العزة جل جلاله فليس بصحيح؛ بل إن ذلك من الْأَغْلَاطِ المعروفة لشَرِيكٍ في حديث الإسراء.

المقصود من هٰذا أن قوله: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ ﴾كلها راجعة إلىٰ جبريل عليه السلام، فكان جبريل عليه السلام ﴿ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ ﴾، وكلمة قَابَ لَهَا مَعانٍ، والمناسب من معانيها هنا أن تكون بمعنىٰ: قَدْر، فكان قَدْرَ قَوْسَيْنِ في القُرْبِ. أو أدنىٰ من ذلك.

وهٰذا التعبير تستعمله العرب في كَلَامِهَا لِتَحْقِيقِ الْوَصْفِ الْأَوَّلِ؛ فَتَأْتِيَ بـ(أو) التي هي في الأصل للتَّخْيِيرِ أو للشك، لتَحْقِيقِ الأول، مثل ما ذكر ابن كثير في التفسير في قوله: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة:٧٤]، يعني: أن الأول مُتَحَقِّقٌ، فهي كالحجارة أو أَشَدُّ قَسْوَةً للتأكيد علىٰ القسوة.

فكذلك في هٰذه الآية: ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ ﴾ يعني: أَنَّ قُرْبَهُ بِقَدْرِ الْقَوْسَيْنِ متحقق في ذلك.

قوله: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ ﴾ أوحىٰ جبريل عليه السلام إلىٰ عبد الله ورسوله محمد ﷺ ما أَوْحَاهُ إليه وفي قوله: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ ﴾ فائدتان من جهة البلاغة:

الفائدة الأولىٰ: أن قوله: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾بدون تَسْمِيَتِهِ باختلاف مَرْجِعِ الضمير، فيه تَشْرِيفٌ وتَعْظِيمٌ للنبي محمد عليه الصلاة والسلام، ودخول الضمائر أو الاسم الظاهر مع ضميره في الإضافة بما يخالف السياق له فائدة في علم المعاني، أَلَا وهِيَ التَّنْبِيهُ، فقوله: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾ الأصل أن يكون مرجعُ الضَّمِيرِ كبقيتها إلىٰ عبدِ الْمُوحِي، وهو جبريل عليه السلام، ومعلوم أن النبي ﷺ عَبْدٌ لله جل وعلا، فَعبّرَ

بالضمير لأن ذلك فيه تَشْرِيفٌ للنبي عليه الصلاة والسلام، وهو في كل مقام لا يَشْـتَبِهُ لِعَظَمَتِـهِ وشَـرَفِهِ أن يكون عَبْدًا لله جل وعلا فهو عبده.

الفائدة الثانية: في قوله: ﴿مَآ أَوۡحَىٰ ١٠﴾ لتعظيم الْمُوحَىٰ بِهِ، فهنا لم يذكر ما أَوْحَاهُ، ولم يقتصر علىٰ كونه أَوْحَىٰ فقط، وإنما قال: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ١٠﴾، فهٰذا يَدُلُّ علىٰ أن المشركين الذين أَعْرَضُوا عن الوَحْي، أعرضوا عن أَمْرٍ عَظِيمٍ، كما قال ﷻ في سورة ص: ﴿قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ٦٧ أَنتُمۡ عَنۡهُ مُعۡرِضُونَ ٦٨﴾، وهٰذا النَّبَأُ الْعَظِيمُ نَفْهَمُهُ من قوله: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ١٠﴾ لِعَظَمَةِ هٰذا الوَحْي، وما فيه، وجَلَالِهِ، وارتفاع ما فيه من الأَوَامِرِ والنَّوَاهِي والأخبار، حيث إنَّه لا يُذْكَرُ تَفْصِيلُهُ، وإنما يُذْكَرُ علىٰ وجه الْإِجْمَالِ، ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ١٠﴾ وهم يُجَادِلُونَ في الوحي.

فهٰذه الآيات فيها قُرْبُ الإسراءِ، ومَجِيءُ جبريل عليه السلام إلىٰ النبي ﷺ، ثم بعد ذلك يأتي ذكر المعراج ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ١٧ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ١٨﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾﴾ قَالَ مُسْلِمٌ: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ الْأَشَجُّ، حَدَّثَنَا وَكِيع، حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ، عَنْ زِيَادِ بْنِ حُصَين، عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ قَالَ: رَآهُ بِفُؤَادِهِ مَرَّتَيْنِ.

وَكَذَا رَوَاهُ سِمَاك، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، مِثْلَهُ. وَكَذَا قَالَ أَبُو صَالِحٍ وَالسُّدِّيُّ وَغَيْرُهُمَا: إِنَّهُ رَآهُ بِفُؤَادِهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ مَرَّةً، وَقَدْ خَالَفَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ وَغَيْرُهُ، وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ أَنَّهُ أَطْلَقَ الرُّؤْيَةَ، وَهِيَ مَحْمُولَةٌ عَلَى الْمُقَيَّدَةِ بِالْفُؤَادِ. وَمَنْ رَوَى عَنْهُ بِالْبَصَرِ فَقَدْ أَغْرَبَ، فَإِنَّهُ لَا يَصِحُّ فِي ذَلِكَ شَيْءٌ عَنِ الصَّحَابَةِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وقولُ الْبَغَوِيِّ فِي تَفْسِيرِهِ: وَذَهَبَ جَمَاعَةٌ إِلَى أَنَّهُ رَآهُ بِعَيْنِهِ، وَهُوَ قَوْلُ أَنَسٍ والحسنُ وَعِكْرِمَةُ. فِيهِ نَظَرٌ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وذلك أنَّ الصحابة رضوان الله عليهم اختلفوا في الرُّؤْيَةِ، هل كانت رؤيةَ فُؤَادٍ أم كانت رُؤْيَا رُوحٍ؟

فالقول أنها رؤيةُ عَيْنٍ لا يَصِحُّ أن يُنْسَبَ إلىٰ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، لأنه ثَبَتَ عنه عليه الصلاة والسلام أنه سأله أبو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال له: هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ قَالَ: «رَأَيْتُ نُورًا»، وفي رواية قال: «نُورٌ أَنَّىٰ أَرَاهُ»، يعني ثَمَّ نُورٌ، وهو الْحِجَابُ، فكيف أرىٰ الْجَبَّارَ جل وعلا.

ورؤية الفؤاد، ورؤية الرُّوحِ هي التي فيها تنازع بينهم. هل رآه بِفُؤَادِهِ ؟ فتكون رؤيا مَنَامٍ، ورؤيا قَلْبٍ بما أوحىٰ الله جل وعلا إلىٰ محمد ﷺ في قَلْبِهِ، أم هي رؤيا روح بدون حَاسَّةِ البصر العَيْنِيَّةِ في السماء، لَمَّا عُرِجَ به جبريل إلىٰ الرب جل وعلا.

أما القول بأنه رآه بعينه، فهٰذا ليس من أقوال الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ويَغْلَطُ من يَنْسِبُ ذلك إلىٰ الصحابة رضوان الله عليهم.

فما ذُكر عن البَغَوِيِّ ليس بِجَيِّدٍ، لأنه اشتباه، وقد نَبَّهَ العلماء كشيخ الإسلام وابن القيم عن الفَرْقِ بَيْنَ قول القائل رآه بِعَيْنِهِ ورآه بِرُوحِهِ، فرؤيةُ الْعَيْنِ شيءٌ، ورُؤْيَا الرُّوحِ شَيْءٌ، ورُؤْيَةُ الفؤادِ شَيْءٌ.

فالخلاف هل رآه بروحه أو بفؤاده، أما رؤيا العين؛ فلا قائل بأنه رآه بعيني رأسه من الصحابة بحيث يصح ذلك عنهم.

وقوله: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ فَسَّرَهَا ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه «رَآهُ بِفُؤَادِهِ مَرَّتَيْنِ»، وهٰذه حَمَلَهَا علىٰ

رؤية الرَّبِّ جل وعلا، والقول الآخر ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾ يعني: في رؤيته لجبريل، ولآيات الله جل وعلا الْعُظْمَىٰ.

وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ نَبْهان بْنِ صَفْوَانَ، حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ بْنُ كَثِيرٍ الْعَنْبَرِيُّ، عَنْ سَلْم بْنِ جَعْفَرٍ، عَنِ الْحَكَمِ بْنِ أَبَانَ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: رَأَىٰ مُحَمَّدٌ رَبَّهُ. قُلْتُ: أَلَيْسَ اللهُ يَقُولُ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الْأَنْعَام: ١٠٣] قَالَ: وَيْحَكَ! ذَاكَ إِذَا تَجَلَّىٰ بِنُورِهِ الَّذِي هُوَ نُورُه، وَقَدْ رَأَىٰ رَبَّهُ مرتين.

ثُمَّ قَالَ: حَسَنٌ غَرِيبٌ.

وَقَالَ أَيْضًا: حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي عُمَرَ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ مَجَالِدٍ، عَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ: لَقِيَ ابْنُ عَبَّاسٍ كَعْبًا بِعَرَفَةَ، فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ فكَبَّر حَتَّىٰ جَاوَبَتْهُ الْجِبَالُ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّا بَنُو هَاشِمٍ فَقَالَ كَعْبٌ: إِنَّ اللهَ قَسَّمَ رُؤْيَتَهُ وَكَلَامَهُ بَيْنَ مُحَمَّدٍ وَمُوسَىٰ، فَكَلَّمَ مُوسَىٰ مَرَّتَيْنِ وَرَآهُ مُحَمَّدٌ مَرَّتَيْنِ. وَقَالَ مَسْرُوقٌ: دخلتُ عَلَىٰ عَائِشَةَ فَقُلْتُ: هَلْ رَأَىٰ مُحَمَّدٌ رَبَّهُ؟ فَقَالَتْ: لَقَدْ تَكَلَّمْتَ بِشَيْءٍ قَفَّ لَهُ شَعْرِي. فَقُلْتُ: رُوَيدًا، ثُمَّ قرأتُ: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾

فَقَالَتْ: أَيْنَ يُذْهَبُ بِكَ؟ إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ مَنْ أَخْبَرَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَأَىٰ رَبَّهُ أَوْ كَتَمَ شَيْئًا مِمَّا أمرَ بِهِ، أَوْ يَعْلَمُ الْخَمْسَ الَّتِي قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ [لُقْمَانَ:٣٤]، فَقَدْ أَعْظَمَ الْفِرْيَةَ، وَلَكِنَّهُ رَأَىٰ جِبْرِيلَ، لَمْ يَرَهُ فِي صُورَتِهِ إِلَّا مَرَّتَيْنِ، مَرَّةً عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ وَمَرَّةً فِي جِيَادٍ، وَلَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ قَدْ سَدَّ الْأُفُقَ.

وَقَالَ النَّسَائِيُّ: حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، حَدَّثَنَا مُعَاذُ بْنُ هِشَامٍ، حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: أَتَعْجَبُونَ أَنْ تَكُونَ الخُلَّة لِإِبْرَاهِيمَ، وَالْكَلَامُ لِمُوسَىٰ، وَالرُّؤْيَةُ لِمُحَمَّدٍ، عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؟!.

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»، عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: هَلْ رأيتَ رَبَّكَ؟ فَقَالَ: «نورٌ أَنَّىٰ أَرَاهُ». وَفِي رِوَايَةٍ: «رَأَيْتُ نُورًا».

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ الْأَشَجُّ، حَدَّثَنَا أَبُو خَالِدٍ، عَنْ مُوسَىٰ بْنِ عُبيدة، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ قَالَ: «رَأَيْتُهُ بِفُؤَادِي مَرَّتَيْنِ» ثُمَّ قَرَأَ: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾.

وَرَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ، عَنِ ابْنِ حُمَيد، عَنْ مِهْرَان، عَنْ مُوسَىٰ بْنِ عُبَيْدَةَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ، عَنْ بَعْضِ

أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ قَالَ: «لَمْ أَرَهُ بِعَيْنِي، وَرَأَيْتُهُ بِفُؤَادِي مَرَّتَيْنِ» ثُمَّ تَلَا ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾. ثُمَّ قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: وَحَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الصَّبَّاحِ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ الْأَنْصَارِيُّ، أَخْبَرَنِي عَبَّاد بْنُ مَنْصُورٍ قَالَ: سَأَلْتُ عِكْرِمَةَ: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١﴾، فَقَالَ عِكْرِمَةُ: تُرِيدُ أَنْ أُخْبِرَكَ أَنَّهُ قَدْ رَآهُ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: قَدْ رَآهُ، ثُمَّ قَدْ رَآهُ. قَالَ: فَسَأَلْتُ عَنْهُ الْحَسَنَ فَقَالَ: رَأَىٰ جَلَالَهُ وعَظَمته ورِداءَه.

وَحَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مُجَاهِدٍ، حَدَّثَنَا أَبُو عَامِرٍ الْعَقَدِيُّ، أَخْبَرَنَا أَبُو خَلَدَةَ، عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ قَالَ: «رَأَيْتُ نَهْرًا، وَرَأَيْتُ وَرَاءَ النَّهْرِ حِجَابًا، وَرَأَيْتُ وَرَاءَ الْحِجَابِ نُورًا لَمْ أَرَ غَيْرَ».

وَذَلِكَ غَرِيبٌ جِدًّا، فَأَمَّا الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ:

حَدَّثَنَا أَسْوَدُ بْنُ عَامِرٍ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «رَأَيْتُ رَبِّي عَزَّوَجَلَّ».

فَإِنَّهُ حَدِيثٌ إِسْنَادُهُ عَلَىٰ شَرْطِ الصَّحِيحِ، لَكِنَّهُ مُخْتَصَرٌ مِنْ حَدِيثِ الْمَنَامِ كَمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَيْضًا:

حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، حَدَّثَنَا مَعْمَر، عَنْ أَيُّوبَ، عَنْ أَبِي قِلابة عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَتَانِي رَبِّي اللَّيْلَةَ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ -أَحْسَبُهُ يَعْنِي فِي النَّوْمِ-فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَتَدْرِي فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَىٰ؟» قَالَ: «قُلْتُ: لَا. فَوَضَعَ يَدَهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ حَتَّىٰ وَجَدْتُ بَرْدَها بَيْنَ ثَدْيَيَّ -أَوْ قَالَ: نَحْرِي-فَعَلِمْتُ مَا فِي السموات وَمَا فِي الْأَرْضِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، هَلْ تَدْرِي فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَىٰ؟» قَالَ: «قُلْتُ: نَعَمْ، يَخْتَصِمُونَ فِي الْكَفَّارَاتِ وَالدَّرَجَاتِ». قَالَ: «وَمَا الْكَفَّارَاتُ وَالدَّرَجَاتُ؟» قَالَ: «قُلْتُ: الْمُكْثُ فِي الْمَسَاجِدِ بَعْدَ الصَّلَوَاتِ، وَالْمَشْيُ عَلَىٰ الْأَقْدَامِ إِلَىٰ الجُمُعات، وَإِبْلَاغُ الْوُضُوءِ فِي الْمَكَارِهِ، مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ عَاشَ بِخَيْرٍ وَمَاتَ بِخَيْرٍ، وَكَانَ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ. وَقَالَ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ إِذَا صَلَّيْتَ: اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ الْخَيْرَاتِ وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ، وَحُبَّ الْمَسَاكِينِ، وَإِذَا أَرَدْتَ بِعِبَادِكَ فِتْنَةً أَنْ تَقْبِضَنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ». قَالَ: «وَالدَّرَجَاتُ بَذْلُ الطَّعَامِ، وَإِفْشَاءُ السَّلَامِ، وَالصَّلَاةُ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسِ نِيَامٌ».

وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي آخِرِ سُورَةِ «ص»، عَنْ مُعَاذٍ نَحْوُهُ. وَقَدْ رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَفِيهِ سِيَاقٌ آخَرُ وَزِيَادَةٌ غَرِيبَةٌ فَقَالَ:

حَدَّثَنِي أَحْمَدُ بْنُ عِيسَىٰ التَّمِيمِيُّ، حَدَّثَنِي سُلَيْمَانُ بْنُ عُمَر بْنِ سَيَّار، حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ سَعِيدِ بْنِ زَرْبِي، عَنْ عُمَرَ بْنِ سُلَيْمَانَ، عَنْ عَطَاءٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «رَأَيْتُ رَبِّي فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ فَقَالَ لِي: يَا مُحَمَّدُ، هَلْ تَدْرِي فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَىٰ؟ فَقُلْتُ: لَا يَا رَبِّ. فَوَضَعَ يَدَهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ فَوَجَدْتُ بَرْدَهَا بَيْنَ ثديي، فعلمت ما في السموات وَالْأَرْضِ، فَقُلْتُ: يَا رَبِّ، فِي الدَّرَجَاتِ وَالْكَفَّارَاتِ، وَنَقْلِ الْأَقْدَامِ إِلَى الجُمُعات، وَانْتِظَارِ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ. فَقُلْتُ: يَا رَبِّ إِنَّكَ اتَّخَذْتَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا وكلمتَ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا، وَفَعَلْتَ وَفَعَلْتَ، فَقَالَ: أَلَمْ أَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ؟ أَلَمْ أَضَعْ عَنْكَ وِزْرَكَ؟ أَلَمْ أَفْعَلْ بِكَ؟ أَلَمْ أَفْعَلْ؟ قَالَ: «فَأَفْضَىٰ إِلَيَّ بِأَشْيَاءَ لَمْ يُؤْذَنْ لِي أَنْ أُحَدِّثَكُمُوهَا» قَالَ: «فَذَاكَ قَوْلُهُ فِي كِتَابِهِ: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾﴾، فَجَعَلَ نُورَ بَصَرِي فِي فُؤَادِي، فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ بِفُؤَادِي» إِسْنَادُهُ ضَعِيفٌ.

وَقَدْ ذَكَرَ الْحَافِظُ ابْنُ عَسَاكِرَ بِسَنَدِهِ إِلَىٰ هَبَّار بْنِ الْأَسْوَدِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ عُتْبَةَ بْنَ أَبِي لَهَبٍ لَمَّا خَرَجَ فِي تِجَارَةٍ إِلَى الشَّامِ قَالَ لِأَهْلِ مَكَّةَ: اعْلَمُوا أَنِّي كَافِرٌ بِالَّذِي دَنَا فَتَدَلَّىٰ. فَبَلَغَ قَوْلُهُ رسولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِ كَلْبًا مِنْ كِلَابِهِ». قَالَ هَبَّارٌ: فَكُنْتُ مَعَهُمْ، فَنَزَلْنَا بِأَرْضٍ كَثِيرَةِ الْأُسْدِ، قَالَ: فلقد رأيت الأسد جاء فجعل يشم رؤوس الْقَوْمِ وَاحِدًا وَاحِدًا، حَتَّىٰ تَخَطَّىٰ إِلَىٰ عُتْبَةَ فَاقْتَطَعَ رَأْسَهُ مِنْ بَيْنِهِمْ.

وَذَكَرَ ابْنُ إِسْحَاقَ وَغَيْرُهُ فِي السِّيرَةِ: أَنَّ ذَلِكَ كَانَ بِأَرْضِ الزَّرْقَاءِ، وَقِيلَ: بِالسَّرَاةِ، وَأَنَّهُ خَافَ لَيْلَتَئِذٍ، وَأَنَّهُمْ جَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ وَنَامُوا مِنْ حَوْلِهِ، فَجَاءَ الْأَسَدُ فَجَعَلَ يَزْأَرُ، ثُمَّ تَخَطَّاهُمْ إِلَيْهِ فَضَغَمَ رَأْسَهُ، لَعَنَهُ اللهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾﴾، هٰذه هِيَ الْمَرَّةُ الثَّانِيَةُ الَّتِي رَأَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِيهَا جِبْرِيلَ عَلَىٰ صُورَتِهِ الَّتِي خَلَقَهُ اللهُ عَلَيْهَا، وَكَانَتْ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ. وَقَدْ قَدَّمْنَا الْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِي الْإِسْرَاءِ بِطُرُقِهَا وَأَلْفَاظِهَا فِي أَوَّلِ سُورَةِ «سُبْحَانَ» بِمَا أَغْنَىٰ عَنْ إِعَادَتِهِ هَاهُنَا، وَتَقَدَّمَ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كَانَ يُثْبِتُ الرُّؤْيَةَ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ، وَيَسْتَشْهِدُ بِهٰذه الْآيَةِ. وَتَابَعَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ، وَقَدْ خَالَفَهُ جَمَاعَاتٌ مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَالتَّابِعِينَ وَغَيْرِهِمْ.

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا حَسَنُ بْنُ مُوسَىٰ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ عَاصِمِ بْنِ بَهْدَلَةَ، عَنْ زِرِّ بْنِ حُبَيْشٍ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ فِي هٰذه الْآيَةِ: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «رَأَيْتُ جِبْرِيلَ وَلَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ، يَنْتُرُ مِنْ رِيشِهِ التَّهَاوِيلُ: الدُّرُّ وَالْيَاقُوتُ». وَهٰذا إِسْنَادٌ جَيِّدٌ قَوِيٌّ.

وَقَالَ أَحْمَدُ أَيْضًا: حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ بْنُ آدَمَ، حَدَّثَنَا شَرِيكٌ، عَنْ جَامِعِ بْنِ أَبِي رَاشِدٍ، عَنْ أَبِي وائل، عَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ: «رَأَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ وَلَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ، كُلُّ جَنَاحٍ مِنْهَا قَدْ سَدَّ الْأُفُقَ: يَسْقُطُ مِنْ جَنَاحِهِ مِنَ التَّهَاوِيلِ وَالدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ مَا اللهُ بِهِ عَلِيمٌ». إِسْنَادُهُ حَسَنٌ أَيْضًا.

وَقَالَ أَحْمَدُ أَيْضًا: حَدَّثَنَا زَيْدُ بْنُ الحُبَاب، حَدَّثَنِي حُسَيْنٌ، حَدَّثَنِي عَاصِمُ بْنُ بَهْدَلَة قَالَ: سَمِعْتُ شَقِيق بْنَ سَلَمَةَ يَقُولُ: سَمِعْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ قَالَ: رَسُولُ اللهِ ﷺ: «رَأَيْتُ جِبْرِيلَ عَلَىٰ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ وَلَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ» سَأَلْتُ عَاصِمًا عَنِ الْأَجْنِحَةِ فَأَبَىٰ أَنْ يُخْبِرَنِي. قَالَ: فَأَخْبَرَنِي بَعْضُ أَصْحَابِهِ أَنَّ الْجَنَاحَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ. وَهٰذا أَيْضًا إِسْنَادٌ جَيِّدٌ.

وَقَالَ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا زَيْدُ بْنُ الْحُبَابِ، حَدَّثَنَا حُسَيْنٌ، حَدَّثَنِي عَاصِمُ بْنُ بَهْدَلَة، حَدَّثَنِي شَقِيقٌ قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَتَانِي جِبْرِيلُ عليه السلام فِي خُضر مُعَلَّقٍ بِهِ الدُّرُّ». إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ أَيْضًا.

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنِي يَحْيَىٰ عَنْ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا عَامِرٌ قَالَ: أَتَىٰ مسروقٌ عَائِشَةَ فَقَالَ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، هَلْ رَأَىٰ مُحَمَّدٌ ﷺ رَبَّهُ عَزَّوَجَلَّ؟ قَالَتْ: سُبْحَانَ اللهِ لَقَدْ قَفَّ شَعْرِي لِمَا قُلْتَ، أَيْنَ أَنْتَ مِنْ ثَلَاثٍ مَنْ حَدّثكهن فَقَدْ كَذَبَ: مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَأَىٰ رَبَّهُ فَقَدْ كَذَبَ، ثُمَّ قَرَأَتْ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الْأَنْعَام: ١٠٣]، ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ [الشُّورَىٰ: ٥١]، وَمَنْ أَخْبَرَكَ أَنَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ فَقَدْ كَذَبَ، ثُمَّ قَرَأَتْ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ الْآيَةَ [لُقْمَانَ:٣٤]، وَمَنْ أَخْبَرَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا قَدْ كَتَمَ، فَقَدْ كَذَبَ، ثُمَّ قَرَأَتْ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [الْمَائِدَة: ٦٧]، وَلَكِنَّهُ رَأَىٰ جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ مَرَّتَيْنِ.

وَقَالَ أَحْمَدُ أَيْضًا: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي عَدِيٍّ، عَنِ دَاوُدَ، عَنِ الشَّعْبِيِّ، عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ عَائِشَةَ فَقُلْتُ: أَلَيْسَ اللهُ يَقُولُ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾ [التَّكْوِير]، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ فَقَالَتْ: أَنَا أَوَّلُ هٰذه الْأُمَّةِ سَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْهَا، فَقَالَ: «إِنَّمَا ذَاكَ جِبْرِيلُ». لَمْ يَرَهُ فِي صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا إِلَّا مَرَّتَيْنِ، رَآهُ مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ إِلَىٰ الْأَرْضِ، سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ.

أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ، مِنْ حَدِيثِ الشَّعْبِيِّ، بِهِ.

رِوَايَةُ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا عَفَّانُ، حَدَّثَنَا هُمَامٌ، حَدَّثَنَا قَتَادَةُ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ شقيق قَالَ:

قُلْتُ لِأَبِي ذَرٍّ: لَوْ رأيتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَسَأَلْتُهُ. قَالَ: وَمَا كُنْتَ تَسْأَلُهُ؟ قَالَ: كُنْتُ أَسْأَلُهُ: هَلْ رَأَىٰ رَبَّهُ، عَزَّوَجَلَّ؟ فَقَالَ: إِنِّي قَدْ سَأَلْتُهُ فَقَالَ: «قَدْ رَأَيْتُهُ، نُورًا أَنَّىٰ أَرَاهُ».

هَكَذَا وَقَعَ فِي رِوَايَةِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ، وَقَدْ أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ مِنْ طَرِيقَيْنِ بِلَفْظَيْنِ فَقَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا وَكِيع، عَنْ يَزِيدَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ شَقِيقٍ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ: هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ فَقَالَ: «نُورٌ أَنَّىٰ أَرَاهُ».

وَقَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا مُعَاذُ بْنُ هِشَامٍ، حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ شَقِيقٍ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي ذَرٍّ: لَوْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَسَأَلْتُهُ. فَقَالَ: عَنْ أَيِّ شَيْءٍ كُنْتَ تَسْأَلُهُ؟ قَالَ: قُلْتُ: كُنْتُ أَسْأَلُهُ: هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ قَالَ أَبُو ذَرٍّ: قَدْ سَأَلْتُ فَقَالَ: «رَأَيْتُ نُورًا».

وَقَدْ حَكَىٰ الْخَلَّالُ فِي «عِلَلِهِ» أَنَّ الْإِمَامَ أَحْمَدَ سُئِل عَنْ هٰذا الْحَدِيثِ فَقَالَ: مَا زلتُ مُنْكِرًا لَهُ، وَمَا أَدْرِي مَا وَجْهُهُ.

وَقَدْ قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ عَوْنٍ الْوَاسِطِيُّ، أَخْبَرَنَا هُشَيْم، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنِ الْحَكَمِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: رَآهُ بِقَلْبِهِ، وَلَمْ يَرَهُ بِعَيْنِهِ.

وَحَاوَلَ ابْنُ خُزَيمة أَنْ يَدَّعِيَ انْقِطَاعَهُ بَيْنَ عَبْدِ اللهِ بْنِ شَقِيق وَبَيْنَ أَبِي ذَرٍّ، وَأَمَّا ابْنُ الْجَوْزِيِّ فَتَأَوَّلَهُ عَلَىٰ أَنَّ أَبَا ذَرٍّ لَعَلَّهُ سَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَبْلَ الْإِسْرَاءِ، فَأَجَابَهُ بِمَا أَجَابَهُ بِهِ، وَلَوْ سَأَلَهُ بَعْدَ الْإِسْرَاءِ لَأَجَابَهُ بِالْإِثْبَاتِ. وَهٰذا ضَعِيفٌ جِدًّا، فَإِنَّ عَائِشَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَدْ سَأَلَتْ عَنْ ذَلِكَ بَعْدَ الْإِسْرَاءِ، وَلَمْ يُثْبِتْ لَهَا الرُّؤْيَةَ. وَمَنْ قَالَ: إِنَّهُ خَاطَبَهَا عَلَىٰ قَدْرِ عَقْلِهَا، أَوْ حَاوَلَ تَخْطِئَتَهَا فِيمَا ذَهَبَتْ إِلَيْهِ -كَابْنِ خُزيمة فِي كِتَابِ التَّوْحِيدِ -، فَإِنَّهُ هُوَ الْمُخْطِئُ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَقَالَ النَّسَائِيُّ: حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، حَدَّثَنَا هِشَامٌ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنِ الْحَكَمِ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ شَرِيكٍ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: رَأَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَبَّهُ بِقَلْبِهِ، وَلَمْ يَرَهُ بِبَصَرِهِ.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»، عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ أَبِي شَيْبَةَ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ مُسْهِرٍ، عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ أَبِي سُلَيْمَانَ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾، قَالَ: رَأَىٰ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الدرس الثالث

وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ قَالَ: رَأَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ مَرَّتَيْنِ، وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَغَيْرُهُمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾: قَدْ تَقَدَّمَ فِي أَحَادِيثِ الْإِسْرَاءِ أَنَّهُ غَشِيَتْهَا الْمَلَائِكَةُ مِثْلَ الغِربان، وَغَشِيَهَا نُورُ الرَّبِّ، وَغَشِيَهَا أَلْوَانٌ مَا أَدْرِي مَا هِيَ.

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا مَالِكُ بْنُ مِغْوَل، حَدَّثَنَا الزُّبَيْر بْنِ عَدِيٍّ، عَنْ طَلْحَةَ، عَنْ مُرَّةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ -هُوَ ابْنُ مَسْعُودٍ- قَالَ: لَمَّا أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ انْتُهِيَ بِهِ إِلَىٰ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ، وَهِيَ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، إِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُعْرَجُ بِهِ مِنَ الْأَرْضِ فَيُقْبَضُ مِنْهَا، وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يَهْبِطُ مِنْ فَوْقِهَا فَيُقْبَضُ مِنْهَا، ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾ قَالَ: فِرَاشٌ مِنْ ذَهَبٍ، قَالَ: وَأُعْطِي رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَلَاثًا: أُعْطِيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، وَأُعْطِيَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وغُفر لِمَنْ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا مِنْ أُمَّتِهِ المُقحمات. انْفَرَدَ بِهِ مُسْلِمٌ.

وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الرَّازِيُّ، عَنِ الرَّبِيعِ، عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَوْ غَيْرِهِ -شَكَّ أَبُو جَعْفَرٍ- قَالَ: لَمَّا أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللهِ انْتَهَىٰ إِلَىٰ السِّدْرَةِ، فَقِيلَ لَهُ: هٰذه السِّدْرَةُ قَالَ: فَغَشِيَهَا نُورُ الْخَلَّاقِ، وَغَشِيَتْهَا الْمَلَائِكَةُ مِثْلَ الْغِرْبَانِ حِينَ يَقَعْنَ عَلَىٰ الشَّجَرِ، قَالَ: فَكَلَّمَهُ عِنْدَ ذَلِكَ، فَقَالَ لَهُ: سَلْ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيح، عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾ قَالَ: كَانَ أَغْصَانُ السِّدْرَةِ لُؤْلُؤًا وَيَاقُوتًا وَزَبَرْجَدًا، فَرَآهَا مُحَمَّدٌ، وَرَأَىٰ رَبَّهُ بِقَلْبِهِ.

وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ شَيْءٍ رَأَيْتَ يَغْشَىٰ تِلْكَ السِّدْرَةَ؟ قَالَ: «رأيتُ يَغْشَاهَا فَرَاشٌ مِنْ ذَهَبٍ، وَرَأَيْتُ عَلَىٰ كُلِّ وَرَقَةٍ مِنْ وَرَقِهَا مَلَكا قَائِمًا يُسَبِّحُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ».

وَقَوْلُهُ: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَا ذَهَبَ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا ﴿وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ مَا جَاوَزَ مَا أُمِرَ بِهِ.

وَهٰذه صِفَةٌ عَظِيمَةٌ فِي الثَّبَاتِ وَالطَّاعَةِ، فَإِنَّهُ مَا فَعَلَ إِلَّا مَا أُمِرَ بِهِ، وَلَا سَأَلَ فَوْقَ مَا أُعْطِيَ. وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَ النَّاظِمُ:

رَأَىٰ جَنَّةَ المَأْوَىٰ وَمَا فَوْقَهَا، وَلَو ... رَأَىٰ غَيْرُهُ مَا قَدْ رَآهُ لَتَاهَا

وَقَوْلُهُ: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا﴾[طه: ٢٣] أَيِ: الدَّالَةُ عَلَىٰ قُدْرَتِنَا وَعَظَمَتِنَا. وَبِهَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ اسْتَدَلَّ مَنْ ذَهَبَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّ الرُّؤْيَةَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ لَمْ تَقَعْ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ

مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾، وَلَوْ كَانَ رَأَى رَبَّهُ لَأَخْبَرَ بِذَلِكَ وَلَقَالَ ذَلِكَ لِلنَّاسِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَقْرِيرُ ذَلِكَ فِي سُورَةِ (سُبْحَانَ) (١) وَقَدْ قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ:

حَدَّثَنَا أَبُو النَّضْرِ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ طَلْحَةَ، عَنِ الْوَلِيدِ بْنِ قَيْسٍ، عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ أَبِي الكَهْتَلة قَالَ مُحَمَّدٌ: أَظُنُّهُ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ -أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يَرَ جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ إِلَّا مَرَّتَيْنِ، أَمَّا مَرَّةٌ فَإِنَّهُ سَأَلَهُ أَنْ يُرِيَه نَفْسَهُ فِي صُورَتِهِ، فَأَرَاهُ صُورَتَهُ فَسَدَّ الْأُفُقَ. وَأَمَّا الْأُخْرَى فَإِنَّهُ صعد مَعَهُ حِينَ صَعِدَ بِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ قَالَ: فَلَمَّا أحسَّ جِبْرِيلُ رَبَّهُ، عَزَّوَجَلَّ، عَادَ فِي صُورَتِهِ وَسَجَدَ. فَقَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ قَالَ: خَلْقَ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

هَكَذَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَهُوَ غَرِيبٌ.

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

الحمد لله، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، واشهد أن محمدا عبد الله ورسوله وخاتم الأنبياء وخاتم المرسلين، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا..

أما بعد؛ فهٰذا بيان لبعض ما اشتمل عليه قوله جل وعلا في أول هٰذه الصورة: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾.

قوله جل وعلا: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾ هٰذا ظَرْفٌ لِمَا تَقَدَّمَ يعني ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ ...إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾ حين يغشىٰ السِّدْرَةَ ما يَغْشَىٰ، وهٰذا الغشيان للسدرة وصف ملازم لها، فقوله: حين غشي السدرة ما يغشىٰ من الأنوار والملائكة..، هو ظرف للرؤية، وهو وصف مُلَازِمٌ للسِّدْرَةِ، فسِدْرَةُ الْمُنْتَهَىٰ دائمًا يَغْشَاهَا ما يغشاها مما خَلَقَهُ الله جل وعلا فيها ولها.

وقوله ﷻ هنا: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾ ما يغشىٰ فيها: أولًا: الْإِبْهَامُ. وثانيًا: الْعُمُومُ.

لأن كلمة (ما) اسم موصول، وهي من أدوات العموم، كأنه قال: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ﴾ الذي يَغْشَاهَا، وصِلَةُ الْمَوْصُولِ محذوفةٌ، لأنها هي الضمير الْمُتَّصِلُ؛ لأن القاعدة أن الضمير الْمُتَّصِلَ بالفعل المضارع

---

(١) يعني سورة الإسراء.

الذي يعود علىٰ الاسم الموصول يُحْذَفُ كَثِيرًا، كما قال ابن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ في الألفية في باب الاسم الموصول:

والحـذف عِنْـدَهُم كَثِيـرٌ مُنْجَلِـي في عَائِـدٍ مُتَّصِـل إن انْتَصَـب

فالعائد علىٰ الاسم الموصول إذا كان منتصبًا ومتصلًا، فإنه يُحْذَفُ كَثِيرًا.

كقوله هنا: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾ أصل الكلام: إذ يغشىٰ السدرة ما يغشاها، وهٰذا نأخذه من معنىٰ ﴿مَا﴾ إذ إنها اسم موصول.

فإذن دَلَّ الاسم الموصول علىٰ عموم ما يَغْشَاهَا دون تخصيص لبعض ما يغشاها.

فإذن يدل هٰذا علىٰ أن ما ذَكَرَهُ الحافظ ابن كثير هنا إنما هو تَمْثِيلٌ، فقد ذكر بعض ما يغشاها، وليس هٰذا علىٰ سبيل الْحَصْرِ، فَغَشَيَانُ الملائكةِ لِسِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ، وكونهم يَقَعُونَ علىٰ أوراقها كالْغِرْبَانِ علىٰ الشَّجَرِ، هٰذا بعض ما يغشاها، وهٰذه الأنوار العظيمة التي رآها النبي عليه الصلاة والسلام، والْأَلْوَانُ الغَرِيبَةُ التي لا يُحْسِنُ عليه الصلاة والسلام حكايتها لِغَرَابَتِهَا وتداخلها، وكونها لائقة بسدرة المنتهىٰ أيضا هٰذا مما يغشاها، وهكذا في أشياء أخر.

الفائدة الثانية: أن الإبهام في قوله: ﴿مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾ يدل علىٰ عِظَمِ ما يَغْشَىٰ، وعلىٰ أنه لا يمكن وَصْفُهُ لِلْبَشَرِ، أو يَطُولُ وَصْفُهُ، لأن من قاعدة العرب في كلامها إذا كان شيءٌ يَطُولُ وَصْفُهُ يُسْتَعَاضُ عنه بإبهامه، كما تقول: في حادثة كذا، أو يوم وقع غَزْوُ آلِ فُلَانٍ علىٰ آلِ فُلَانٍ، والتي حصل فيها ما حصل والتي كان فيها ما كان. فتُغْنِي هٰذه الْعِبَارَةُ الْمُبْهَمَةُ عمَّا يُوصَفُ لطول وَصْفِهِ، أو لِتِعْدَادِ وَصْفِهِ، فكأنه أعرض عن تفصيل الوصف لأنه كَثِيرٌ، فَمِثْلُ هٰذا يَدَلُّ علىٰ عظمة الموصوف وعلىٰ جلالته، وعلىٰ أنه لا يُحِيطُ به الوصف، وهٰذا هو حَالُ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ، فإنها عظيمةٌ جِدًّا بَيَّنَ النبي عليه الصلاة والسلام في السُّنَّةِ بعض أوصافها، كقوله: «أوراقها كآذان الفيلة».

وقوله جل وعلا: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ هٰذا نَفْيٌ أن يكون بَصَرُ النبي عليه الصلاة والسلام زَاغَ أو طَغَىٰ، ولا شك أن في هٰذا أعظمُ تَزْكِيَةٍ للنبي عليه الصلاة والسلام بأن ذلك المقام العظيم فوق السَّمٰوات السبع، ورؤية تلك الأشياء العظيمة، وما في السماء منذ عُرِجَ به إلىٰ أن انتهىٰ إلىٰ سِدْرَةِ المنتهىٰ عليه الصلاة والسلام، فهٰذه الأشياء العظيمة توجب للإنسان العادي أن يَنْظُرَ وأن يَلْتَفِتَ يَمِينًا وشمالًا، وأن يَتَعَدَّىٰ حتىٰ يكون علىٰ مَعْرِفَةٍ أو عَلَىٰ نَظَرٍ فهو عليه فلم يَلْتَفِتْ يمينا ولا شمالا ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾ بمعنىٰ لم

يلتفت يُمْنَةً ويَسْرَةً، بشيء لم يؤذن له فيه. ﴿وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ لم يَتَجَاوزِ الْحَدَّ فيما أُذِنَ له فيه، فهو عليه الصلاة والسلام في ذلك المقام العظيم مقامِ الْمِعْرَاجِ، لم يَزِغْ بَصُرُهُ ولم يَطْغَ، وهٰذا التَّنْزِيهُ والتزكية له عليه الصلاة والسلام تدل علىٰ عِظَمِ مَقَامِهِ في السماء، فكيف يكون مَقَامُه في الأرض، التي هي بالنسبة إلىٰ ما رآه عليه الصلاة والسلام في السماء كَلَا شَيْء، فهٰذا رَدٌّ علىٰ المشركين، وعلىٰ الذين يكذبونه عليه الصلاة والسلام أو يَدَّعُونَ أنَّه لم يُسْرَ بِهِ، أو لم يُعْرَجْ به، أو لم يأت بالرِّسَالَةِ من عند الله جل وعلا.

وقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ اللام في قوله: ﴿لَقَدْ﴾ واقعة في جواب القسم، وهي التي يُسَمِّيهَا العلماءُ الْمُوَطِّئَةَ لِلْقَسَمِ يعني الدَّالَّة علىٰ قَسَمٍ مَحْذُوفٍ، أَصْلُ الْكَلَامِ: والله لقد رأىٰ من آيات رَبِّهِ الكبرىٰ؛ لأن تحقيق الكلام يأتي بِقَدْ، فإذا كان مُقْسَمًا عليه قيل: لَقَدْ. فأصلُ الكلامِ: والله لقد رأىٰ من آيات ربه الكبرىٰ.

وقوله: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ كما ذكر الحافظ ابن كثير مما استُدِل به علىٰ أن رؤية النبي عليه الصلاة والسلام لله جل وعلا لم تَحْصُلْ لأنه أقسم علىٰ أنه رَأىٰ من آيات رَبِّهِ، وآيات الله جل وعلا هي الْمَخْلُوقَةُ، وأما الله ﷻ فمفهوم الكلام هنا أنه لم تحصل رؤية له، وهٰذا هو الموافق لما جاء في السُّنَّةِ أنه عليه الصلاة والسلام قال: « رَأَيْتُ نُورًا » وقال: « نُورٌ أَنَّىٰ أَرَاهُ »، يعني أنه لم يَرَ رَبَّهُ جل وعلا بَعَيْنَيْ رأسه عليه الصلاة والسلام.

وقوله: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ كما ذكر كقوله جل وعلا: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ [الإسراء:١]، فهو جل وعلا وتَقَدَّسَ وتَعَاظَمَ أعطىٰ الأنبياءَ آياتٍ، وهٰذا الإِعْطَاءُ، إما أن يكون لأَنْفُسِهِم، لِتَقْوِيَةِ إيمانهم ويَقِينِهِمْ، وطُمَأْنِينَتِهِمْ للحق الذي جاءهم، وإمَّا أن يكون لغيرهم، والنبي عليه الصلاة والسلام أُعْطِيَ هٰذا وهٰذا، فأُرِيَ آياتٍ لتكون حُجَّةً عليه عليه الصلاة والسلام، فَرَآهَا ولم يَرَهَا غيرهُ عليه الصلاة والسلام من أمته مما حصل في السماء في المعراج، وكذلك مما يَحْصُلُ في الأرض مما لا يراه غيره، وأمور الغيب التي يطّلعَ عليها عليه الصلاة والسلام، وكَشْفِ الْجَنَّةِ والنار له، ورؤية الجن والشياطين علىٰ هيئتهم، والملائكة إلىٰ آخر ذلك.

فأُمُور الْغَيْبِ ربما كُشِفَتْ له عليه الصلاة والسلام كما قال ﷻ: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن]، ويشمل ذلك الغيبيات المرئية والغيبيات المعلومة.

أيضا استُدل بهٰذه الآية وهي قوله: ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾ علىٰ أن آيات الله جل وعلا منْقَسِمَةٌ إلىٰ آيات كبرىٰ وصغرىٰ، وأنَّ الْأَنْبياءَ يُعْطَوْنَ من الآيات الكبرىٰ والصغرىٰ ما يكون دليلًا علىٰ صِدْقِ نُبُوَّتِهِمْ، وصدق رسالتهم، وأن ما جاءوا به حَقٌّ، وكرامات الأولياء لا تَبْلُغُ الآيات الكبرىٰ التي أُعْطِيهَا الأنبياء والمرسلون، وإنما قد تَبْلُغُ بعض الآيات الصغرىٰ في ذلك.

فآيات الله جل وعلا كُبْرَىٰ وصُغْرَىٰ، وهٰذا فيه دليل لأهلِ السُّنَّةِ والْجَمَاعَةِ في أن آيات الأنبياء والمرسلين لا يمكن أن تَصِلَ إليها كَرَامَاتُ الأَوْلِيَاءِ خلافًا للأشاعرة وأمثالهم ممن قالوا: إن آيات الأنبياء وكرامات الأولياء تكون بمرتبة واحدة.

من حيث الوقوع الآية التي لا يكون مثلها شائع أو حاصل هي الآيات الكبرىٰ، مثل انْشِقَاقِ القمر، والقرآن، والمعراج، وأمثال ذلك.

والآيات الصغرىٰ: هي التي قد تَحْصُلُ من الْخَوَارِقِ مثل: نُبُوعِ الماءِ من بَيْنَ أَصَابِعِهِ عليه الصلاة والسلام، وتَحَرُّكُ الشجر له عليه الصلاة والسلام، أو معرفته ما في نفس الدَّابَّة، أو أشباه ذلك، لأن مثل هٰذه الأشياء حصلت للأولياء.

والأولياء في كراماتهم لا يَحْصُلُ لهم ما يُسَاوِي الآيات الكبرىٰ، وقد يَحْصُلُ لهم شيء من الآيات الصغرىٰ.

ودلائل النبوة بالأصالة في الآيات الكبرىٰ، والآيات الصغرىٰ مُسَاعِدَةٌ ومُتَمِّمَةٌ، وكالشواهد للآيات الكبرىٰ، والآيات الكبرىٰ قليلة، والآيات الصغرىٰ كثيرة، وهٰذه كلها تجدها في الكلام علىٰ كرامات الأولياء، ودَلَائِلِ النُّبُوَّةِ في مواضعها من كتب الأئمة.

و﴿ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ تأنيث الأكبر، والأَكْبَرُ مذكر، والمؤنث هنا راجع للآيات، فالآية كبرىٰ، والآيات كبرىٰ لفظها مؤنث، كما أن المفرد يقال: هٰذا البناء أكبر، وهٰذه الأبنية أكبر.

فأكبر وكبرىٰ، ليس في لفظها ما يدل علىٰ الوحدة، أو علىٰ الجمع، والسياق هو الذي يحدده.

ففي قوله تعالىٰ: ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾ لقد رأىٰ الكبرىٰ من آيات ربه، وهٰذا يحتمل أن يكون المراد آية واحدة، وآيات من حيث اللفظ، لقد رأىٰ الآية الكبرىٰ من آيات ربه، أو لقد رأىٰ الآيات الكبرىٰ من آيات ربه، قد تكون هٰذه وقد تكون هٰذه.

والحاصل أنه عليه الصلاة والسلام رأىٰ عِدَّةَ آيات، لم يَرَ آية واحدة، رأىٰ آيات كثيرة، والآية هي: الحالة الدالة أو الشيء الدال علىٰ المراد منه دلالة واضحة بَيِّنَة لا التباس فيها، وهٰذا هو الفرق بينها وبين الدليل والعنوان، فالدليل والعنوان يدل علىٰ الشيء، وقد يكون فيه التباسٌ، فيقال: هٰذا الشيء عنوان كذا. وهٰذا الشيء دليل كذا. لكن لا يقال: آية حتىٰ تكون دالةً علىٰ المراد بِوُضُوحٍ وعدم اشتباه.

لذلك سُمِّيَتْ مُعْجَزِاتُ الأنبياء آيات وبراهين، آياتٌ لأنها دالةٌ دَلالة واضحة علىٰ الْمُرَادِ، وآيات القرآنِ سُمِّيَتْ آيات لذلك، وهكذا آيات غيره من كتب الله جل وعلا.

نقف عند هٰذا أحسن.

الدرس الرابع

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُقَرِّعا لِلْمُشْرِكِينَ فِي عِبَادَتِهِمُ الْأَصْنَامَ وَالْأَنْدَادَ وَالْأَوْثَانَ، وَاتِّخَاذِهِمْ لَهَا الْبُيُوتَ مُضَاهَاةً لِلْكَعْبَةِ الَّتِي بَنَاهَا خَلِيلُ الرَّحْمَنِ، عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾﴾؟ وَكَانَتِ (اللَّاتُ) صَخْرَةً بَيْضَاءَ مَنْقُوشَةً، وَعَلَيْهَا بَيْتٌ بِالطَّائِفِ لَهُ أَسْتَارٌ وسَدَنة، وَحَوْلَهُ فِنَاءٌ مُعَظَّمٌ عِنْدَ أَهْلِ الطَّائِفِ، وَهُمْ ثَقِيفٌ وَمَنْ تَابَعَهَا، يَفْتَخِرُونَ بِهَا عَلَىٰ مَنْ عَدَاهُمْ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ بَعْدَ قُرَيْشٍ.

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَكَانُوا قَدِ اشْتَقُّوا اسْمَهَا مِنَ اسْمِ اللهِ تَعَالَىٰ، فَقَالُوا: اللَّاتُ، يَعْنُونَ مُؤَنَّثَةً مِنْهُ، تَعَالَىٰ اللهُ عَنْ قَوْلِهِمْ عُلُوًّا كَبِيرًا. وَحُكِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٍ، وَالرَّبِيعِ بْنِ أنس: أنهم قرؤوا (اللَّاتَّ) بِتَشْدِيدِ التَّاءِ، وَفَسَّرُوهُ بِأَنَّهُ كَانَ رَجُلًا يَلُتُّ لِلْحَجِيجِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ السَّوِيقَ، فَلَمَّا مَاتَ عَكَفُوا عَلَىٰ قَبْرِهِ فَعَبَدُوهُ.

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: حَدَّثَنَا مُسْلِمٌ -هُوَ ابْنُ إِبْرَاهِيمَ- حَدَّثَنَا أَبُو الْأَشْهَبِ، حَدَّثَنَا أَبُو الْجَوْزَاءِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾﴾ قَالَ: كَانَ اللَّاتُّ رَجُلًا يَلُتُّ السَّوِيقَ، سَوِيقَ الْحَاجِّ.

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَكَذَا الْعُزَّىٰ مِنَ الْعَزِيزِ.

وَكَانَتْ شَجَرَةً عَلَيْهَا بِنَاءٌ وَأَسْتَارٌ بِنَخْلَةَ، وَهِيَ بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ، كَانَتْ قُرَيْشٌ يعظمونها، كما قَالَ أَبُو سُفْيَانَ يَوْمَ أُحُدٍ: لَنَا الْعُزَّىٰ وَلَا عزَّىٰ لَكُمْ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قُولُوا: اللهُ مَوْلَانَا، وَلَا مَوْلَىٰ لَكُمْ».

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ حُمَيد بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ حَلَفَ فَقَالَ فِي حَلِفِهِ: وَاللَّاتِ وَالْعُزَّىٰ، فَلْيَقُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. وَمَنْ قَالَ لِصَاحِبِهِ: تَعَالَ أُقَامِرْكَ، فَلْيَتَصَدَّقْ».

وَهٰذا مَحْمُولٌ عَلَىٰ مَنْ سَبَقَ لِسَانُهُ فِي ذَلِكَ، كَمَا كَانَتْ أَلْسِنَتُهُمْ قَدِ اعْتَادَتْهُ فِي زَمَنِ الْجَاهِلِيَّةِ، كَمَا قَالَ النَّسَائِيُّ: أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ بَكَّار وَعَبْدُ الْحَمِيدِ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَا حَدَّثَنَا مَخْلَد، حَدَّثَنَا يُونُسُ، عَنْ أَبِيهِ، حَدَّثَنِي مُصْعَبُ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: حَلَفْتُ بِاللَّاتِ وَالْعُزَّىٰ، فَقَالَ لِي أَصْحَابِي: بِئْسَ مَا قُلْتَ! قُلْتَ هُجْرًا! فَأَتَيْتُ رَسُولَ ﷺ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: «قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ

وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. وَانْفُثْ عَنْ شِمَالِكَ ثَلَاثًا، وتعوَّذ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، ثُمَّ لَا تَعُدْ».

وَأَمَّا (مَنَاةُ) فَكَانَتْ بالمُشَلَّل -عِنْدَ قديد، بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ-وَكَانَتْ خُزَاعَةُ وَالْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ فِي جَاهِلِيَّتِهَا يُعَظِّمُونَهَا، ويُهلّون مِنْهَا لِلْحَجِّ إِلَىٰ الْكَعْبَةِ. وَرَوَىٰ الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ نَحْوَهُ. وَقَدْ كَانَتْ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَغَيْرِهَا طَوَاغِيتُ أُخَرُ تُعَظِّمُهَا الْعَرَبُ كَتَعْظِيمِ الْكَعْبَةِ غَيْرَ هٰذه الثَّلَاثَةِ الَّتِي نَصَّ عَلَيْهَا فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَإِنَّمَا أَفْرَدَ هٰذه بِالذِّكْرِ لِأَنَّهَا أَشْهَرُ مِنْ غَيْرِهَا.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ فِي السِّيرَةِ: وَقَدْ كَانَتِ الْعَرَبُ اتَّخَذَتْ مَعَ الْكَعْبَةِ طَوَاغِيتَ، وَهِيَ بُيُوتٌ تُعَظِّمُهَا كَتَعْظِيمِ الْكَعْبَةِ، بِهَا سَدَنَةٌ وَحُجَّابٌ، وَتُهْدِي لَهَا كَمَا يُهْدَىٰ لِلْكَعْبَةِ، وَتَطُوفُ بِهَا كطَوْفَاتِها بِهَا، وَتَنْحَرُ عِنْدَهَا، وَهِيَ تَعْرِفُ فَضْلَ الْكَعْبَةِ عَلَيْهَا؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ قَدْ عَرَفَتْ أَنَّهَا بَيْتُ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام وَمَسْجِدُهُ. فَكَانَتْ لِقُرَيْشٍ وَبَنِي كِنَانَةَ الْعُزَّىٰ بِنَخْلَةَ، وَكَانَتْ سَدَنَتُهَا وَحُجَّابُهَا بَنِي شَيْبَانَ مِنْ سُلَيْمٍ حُلَفَاءَ بَنِي هَاشِمٍ.

قُلْتُ: بَعَثَ إِلَيْهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ فَهَدَمَهَا، وَجَعَلَ يَقُولُ:

يَا عُزَّ، كُفْرَانَكِ لَا سُبْحَانَكِ إِنِّي رَأَيْتُ اللهَ قَدْ أَهَانَكِ

وَقَالَ النَّسَائِيُّ: أَخْبَرَنَا عَلِيُّ بْنُ الْمُنْذِرِ، أَخْبَرَنَا ابْنُ فُضَيْلٍ، حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ بْنِ جُمَيْعٍ، عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ قَالَ: لَمَّا فَتَحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَكَّةَ بَعَثَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَىٰ نَخْلَةَ، وَكَانَتْ بِهَا الْعُزَّىٰ، فَأَتَاهَا خَالِدٌ وَكَانَتْ عَلَىٰ ثَلَاثِ سَمُرات، فَقَطَعَ السَّمُرات، وَهَدَمَ الْبَيْتَ الَّذِي كَانَ عَلَيْهَا. ثُمَّ أَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ: «ارْجِعْ فَإِنَّكَ لَمْ تَصْنَعْ شَيْئًا». فَرَجَعَ خَالِدٌ، فَلَمَّا أَبْصَرَتْهُ السَّدَنة -وَهُمْ حَجَبتها-أَمْعَنُوا فِي الحِيَل[1] وَهُمْ يَقُولُونَ: «يَا عُزَّىٰ، يَا عُزَّىٰ». فَأَتَاهَا خَالِدٌ فَإِذَا امْرَأَةٌ عُرْيَانَةٌ نَاشِرَةٌ شَعْرَهَا تَحْفِنُ التُّرَابَ عَلَىٰ رَأْسِهَا، فَغَمَسَهَا بِالسَّيْفِ حَتَّىٰ قَتَلَهَا، ثُمَّ رَجَعَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: «تِلْكَ الْعُزَّىٰ».

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَكَانَتِ اللَّاتُ لِثَقِيفٍ بِالطَّائِفِ، وَكَانَ سَدَنتها وَحُجَّابُهَا بَنَىٰ مُعَتِّب.

قُلْتُ: وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمُغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ وَأَبَا سُفْيَانَ صَخْرَ بْنَ حَرْبٍ، فَهَدَمَاهَا وَجَعَلَا مَكَانَهَا مَسْجِدَ الطَّائِفِ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَكَانَتْ مَنَاةُ لِلْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ وَمَنْ دَانَ بِدِينِهِمْ مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ عَلَىٰ سَاحِلِ الْبَحْرِ مِنْ

---

(١) أظنها: الجبل.

نَاحِيَةِ المُشَلّل بِقُدَيْدٍ، فَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَيْهَا أَبَا سُفْيَانَ صَخْرَ بْنَ حَرْبٍ، فَهَدَمَهَا. وَيُقَالُ: عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ.

قَالَ: وَكَانَتْ ذُو الخَلَصة لدَوس وخَثعم وبَجيلة، وَمَنْ كَانَ بِبِلَادِهِمْ مِنَ الْعَرَبِ بِتَبَالة.

قُلْتُ: وَكَانَ يُقَالُ لَهَا: الْكَعْبَةُ الْيَمَانِيَّةُ، وَلِلْكَعْبَةِ الَّتِي بِمَكَّةَ الْكَعْبَةُ الشَّامِيَّةُ.

فَبَعَثَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ جَرِيرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ الْبَجَلِيَّ فَهَدَمَهُ.

قَالَ: وَكَانَتْ فَلْس لِطَيِّئَ وَلِمَنْ يَلِيهَا بِجَبَلَيْ طَيِّئَ مِنْ سَلمىٰ وَأَجَا.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: فَحَدَّثَنِي بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بعث إِلَيْهِ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ فَهَدَمَهُ، وَاصْطَفَىٰ مِنْهُ سَيْفَيْنِ: الرّسُوب والمخْذَم، فَنفَّله أَيَّاهُمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَهُمَا سَيْفَا عَلِيٍّ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَكَانَ لِحِمْيَرَ وَأَهْلِ الْيَمَنِ بَيْتٌ بِصَنْعَاءَ يُقَالُ لَهُ: رِيَامٌ. وَذَكَرَ أَنَّهُ كَانَ بِهِ كَلْبٌ أَسْوَدُ، وَأَنَّ الْحَبْرَيْنِ اللَّذَيْنِ ذَهَبَا مَعَ تُبَّعٍ اسْتَخْرَجَاهُ وَقَتَلَاهُ، وَهَدَمَا الْبَيْتَ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَكَانَتْ «رُضَاء» بَيْتًا لِبَنِي رَبِيعَةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ سَعْدِ بْنِ زَيْدِ مَنَاةَ بْنِ تَمِيمٍ، وَلَهَا يَقُولُ الْمُسْتَوْغِرُ بْنُ رَبِيعَةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ سَعْدٍ حِينَ هَدَمَهَا فِي الْإِسْلَامِ:

وَلَقَدْ شَدَدْتُ عَلَىٰ رُضَاء شَدّةً ... فَتَرَكْتُهَا قَفْرًا بِقَاعٍ أسحَمَا

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: إِنَّهُ عَاشَ ثَلَاثَمِائَةٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً، وَهُوَ الْقَائِلُ:

وَلَقَد سَئِمْتُ مِنَ الحيَاةِ وَطُولِهَا ... وَعُمِّرْتُ مِنْ عَدَدِ السِّنِينَ مِئِينَا

مائَةً حَدّتها بَعْدَها مائَتَان لِي ... وَازْدَدْتُ مِنْ عَدَدِ الشُّهُورِ سِنِينَا

هَلْ مَا بَقِي إِلَّا كَمَا قَدْ فَاتَنَا ... يَومٌ يَمُرُّ وَلَيلَةٌ تَحْدُونَا

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَكَانَ ذُو الكَعَبَات لِبَكْرٍ وَتَغْلِبَ ابْنَيْ وَائِلٍ، وَإِيَادٍ بِسَنْداد وَلَهُ يَقُولُ أعشىٰ بن قَيْسِ بْنِ ثَعْلَبَةَ:

بَيْنَ الخَوَرْنَق والسَّدير وَبَارِقٍ ... والبيت ذو الكَعَبَات مِنْ سَنْدَاد

وَلِهٰذا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾؟.

ثُمَّ قَالَ: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾؟ أَيْ: أَتَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا، وَتَجْعَلُونَ وَلَدَهُ أُنْثَىٰ، وَتَخْتَارُونَ لِأَنْفُسِكُمُ الذُّكُور، فَلَوِ اقْتَسَمْتُمْ أَنْتُمْ وَمَخْلُوقٌ مِثْلُكُمْ هٰذه الْقِسْمَةَ لَكَانَتْ ﴿قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ أَيْ: جَوْرًا بَاطِلَةً، فَكَيْفَ تُقَاسِمُونَ رَبَّكُمْ هٰذه الْقِسْمَةَ الَّتِي لَوْ كَانَتْ بَيْنَ مَخْلُوقِينَ كَانَتْ جَوْرًا وَسَفَهًا.

ثُمَّ قَالَ مُنْكِرًا عَلَيْهِمْ فِيمَا ابْتَدَعُوهُ وَأَحْدَثُوهُ مِنَ الْكَذِبِ وَالِافْتِرَاءِ وَالْكُفْرِ، مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَتَسْمِيَتِهَا آلِهَةً: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ أَيْ: مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِكُمْ ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أَيْ: مِنْ حُجَّةٍ، ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ أَيْ: لَيْسَ لَهُمْ مُسْتَنَدٌ إِلَّا حُسْنَ ظَنِّهِمْ بِآبَائِهِمُ الَّذِينَ سَلَكُوا هٰذا الْمَسْلَكَ الْبَاطِلَ قَبْلَهُمْ، وَإِلَّا حَظَّ نُفُوسِهِمْ فِي رِيَاسَتِهِمْ وَتَعْظِيمِ آبَائِهِمُ الْأَقْدَمِينَ، ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ أَيْ: وَلَقَدْ أَرْسَلَ اللهُ إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ بِالْحَقِّ الْمُنِيرِ وَالْحُجَّةِ القاطعة، ومع هٰذا ما اتبعوا ما جاؤوهم بِهِ، وَلَا انْقَادُوا لَهُ.

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

الحمد لله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا إلىٰ يوم الدين.

أما بعد؛ فقول الحق جل جلاله وتقدست أسماؤه: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ هٰذا فيه إنكار علىٰ هؤلاءِ المشركين الذين بُعِثَ رسولُ الله ﷺ إليهم وفيهِمْ، وآلهة المشركين مُتَنَوِّعَةٌ، منها ما هو علىٰ صُورَةِ رَجُلٍ، ومنها علىٰ صُورَة مَلَكٍ، ومنها علىٰ صُورة كَوْكَبٍ، وهٰذه هي التي يُسَمُّونَهَا الأصنام، وهناك أشياء تَبَعٌ لهٰذه الأنواع، وهي الْبِقَاعُ والأَمَاكِنُ التي كان يَتَنَزَّلُ فيها، أو يَتَعَبَّدُ عندها الصالح من الرِّجَالِ، أو يأتي فيها أَثَرُ الكوكب، أو يأتي فيها الْمَلَكُ الذي يُعْبَدُ، وهٰذه الأشياء إنما وُضِعَتْ بالْأَقْيِسَةِ الفاسدة، فكل مَوْضِعٍ عُبِدَ من المواضع من البِقَاعِ أو الأَشْجَارِ أو أشباه ذلك، فهو راجع إلىٰ أَثَرِ رُوحٍ، إما رُوح وَلِيٍّ، أو رُوح كَوْكَبٍ، يُسَمُّونَهَا رَوْحَانِيَّة الكواكب، أو روح مَلَكٍ وأشباه ذلك، ولهم فيه فلسفة متنوعة، وبهٰذا يَتَبَيَّنُ أن القراءَتَيْنِ في قوله: ﴿ٱللَّٰتَ﴾ بالتَّخْفِيفِ وبالتَّشْدِيدِ في المعنىٰ واحد، لأن من قرأ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَّ﴾ أراد الرجل الذي يَلِتُّ السَّوِيقَ، وسُمِّيَتْ الصخرة (لَاتَ) بالتَّخْفِيفِ نِسْبَةً إلىٰ فِعْلِهِ، وعُبِدَتْ لا لأنها صخرة، لكن لأنها مكان كان يَتَعَبَّدُ فيه ذاك الرَّجُلُ ويُحْسِنُ إلىٰ النَّاسِ، وهٰذه كما سمعت كانت لِقَبَائِلِ الطَّائِفِ وما والاها من ثَقِيفٍ وغيرهم، فقراءة من قرأ؛ ابن عباس ومجاهد وغيرهما: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَّ﴾ يعني الرجل الذي كان مدفونًا عند تلك الصخرة، أو ﴿ٱللَّٰتَ﴾ يريدون بها الصخرة، لأنها هي التي كانت تُعَظَّمُ، ووُضِعَ عليها

البَيْتُ الذي يُقْصَدُ وله السَّدَنَةُ وعليه الأستار إلىٰ آخره.

والْعُزَّىٰ: لقريش، ومَنَاةُ: للأَوْسِ والْخَزْرَجِ، وهٰذه أمثلة لأعظم ثلاثة آلهة كانوا يعبدونها.

وهٰذه الآية كما ترىٰ فيها إِنْكَارٌ بالهَمْزَةِ ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾﴾ فالهمز إذا جاء بعده فاء أو واو في القرآن وفي كلام العرب، فمعناه أن هناك جملة حُذفت بَيْنَ الهمز والفاء، لأن الفاءَ أو الواو عاطفة، وتعطف ما بعدها علىٰ ما قبلها، وما قبلها محذوفٌ لكراهَةِ الفصل بين الهمز وحرف العطف، فهنا المحذوف يُقَدَّرُ بحسب السياق، كأن نُقَدِّرَ هنا مثلًا فنقول: أَتُنْكِرُونَ وَحْي محمد عليه الصلاة والسلام وعبادته ربه وحده لا شريك له.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ يعني من جهة رؤيتكم لها، وإعزازكم لها، وعبادتكم لها، أنكرتم ذلك، وأنتم في عبادتكم هٰذه لها، ما أعطيتم الله جل وعلا حَقَّهُ، لأنكم جعلتم هٰذه مؤنثة من أسماء الله جل جلاله.

وأشباه التقادير التي تناسب ما مضىٰ، هٰذا مُطَّرِد في القرآن كله، وفي اللغة أيضًا في تقدير ما بين الهمز والفاء.

والأمثلة علىٰ ذلك كثيرة منها: قوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة]، ﴿أَوَلَوْ﴾ هناك محذوف، ﴿أَفَأَنتُمُ﴾ [الأنبياء:٥٠] هناك محذوف، ﴿أَفَرَأَيْتُم﴾ [الشعراء:٧٥] هناك محذوف، ﴿أَتَقُولُونَ﴾[يونس:٦٨] هناك محذوف... إلىٰ آخره.

وقوله: ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾، في قوله: ﴿ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ وجهان عند أهل التفسير:

الوجه الأول: ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ يعني: بَعْدَ اللَّاتِ والْعُزَّىٰ هٰذه الثالثة، أخرىٰ زِيَادَة علىٰ ما ذُكِرَ.

والوجه الثاني: أن الْأُخْرَىٰ بمعنىٰ المتأخرة. وهٰذا الثاني هو الأرجح ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ يعني: المتأخرة في ترتيب الآلهة عندهم، لأنهم كانوا يَجْعَلُونَ اللَّاتَ أَعْظَمَ تلك الآلهة، والْعُزَّىٰ بعدها، ومناة بعدها، ثم تأتي سائر آلهة العرب التي كانوا يجعلون عليها البيوت، ويُحَجُّ إليها، وتُقْصَدُ.

قوله سبحانه: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾ هٰذا تَوْبِيخٌ وإنْكَارٌ عليهم في هٰذه التسمية، وتَسْمِيَتُهُمُ اللَّاتَ تأنيث الله عَزَّوَجَلَّ، والعُزَّىٰ من العزيز، ومَنَاة من المنَّان، وأشباه ذلك مما فيه تأنيث لأسماء الله جل وعلا،

لذلك قال سبحانه: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾.

وفي قوله: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾ الاستفهام بالهمزة، كقوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل:٦٠]، لأن ما بَعْدَهَا مُبْطَلٌ، لَكُمُ الذَّكَرُ وله الأنثىٰ، هٰذا مُبْطَلٌ غَيْرُ مُحَقَّقٍ، كقوله تعالىٰ: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾.

﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾ يعني جعلتم لأنفسكم الذكور، وتجعلون لله جل وعلا الإناث وجعلهم لله جل وعلا الإناث كان من جهتين:

الجهة الأولىٰ: أَنَّهُمْ جَعَلُوا الملائكة الذين هم عباد الرَّحمٰن بناتٍ لله جل وعلا.

والجهة الثانية: أنهم جعلوا الآلهة الصغيرةَ التي تَقُودُ إلىٰ إِلَهِ الآلهة الذي هو الله جل وعلا إناثًا، وهٰذا وهٰذا كله من اعتقاد المشركين ظاهرًا، فإنهم جعلوا الآلهة الصغيرة إناثًا في التَّسْمِيَةِ، وحَرَّفُوا الأسماء، اشْتَقُّوا أسماء تلك الآلهة من أسماء الله جل وعلا، وكذلك في جعلهم الملائكة إناثًا، وجعلوها بنات لله ﷻ.

قوله ﷻ: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ يعني: هٰذه الْقِسْمَةُ ظَالِمَةٌ غَيْرُ عادلة، لا تَقْبَلُونَهَا أنتم فيما بينكم لو تقاسمتم.

قوله ﷻ: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ هٰذه الآية مر عليها ابن كثير سريعا، هٰذه الآية نَأْخُذُ منها قَاعِدَةً في التَّفْسِيرِ وهي: أَنَّ كُلَّ مَوْضِعٍ في القرآن جُعِلَ فِيهِ ذِكْرٌ لِلشُّرَكَاءِ، وفيه ذِكْرٌ للآلهة، فإن السِّيَاقَ يبْني تَسْمِيَتُهُ علىٰ الظَّنِّ، وهٰذه القاعدة واضحة في هٰذا الموضع: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾، وكذلك في مواضع أُخَر.

المقصود أن يُنْتَبَهَ إلىٰ أن إِضَافَةَ تَسْمِيَةِ الآلهة إليهم فإنه يُبْنَىٰ في القرآن من أوله إلىٰ أخره علىٰ الظَّنِّ، هٰذا لا يُعْنَىٰ به أنهم ليسوا شركاء في الحقيقة، وإنما المقصود به أنهم ليسوا شركاء فيما يقضي به العلم، إنما هُمْ شُرَكَاءُ فيما عندكم من الظَّنِّ، وهٰذا موضع يُنَبَّهُ عليه، لأن كثيرين من أهل التفسير يَغْلَطُونَ في ذلك فيجعلون فيها نَفْيَ الشَّرِكَةِ وفيها نَفْيَ للإِلَهِيَّةِ من جهة الحقيقة، أَمَّا هم فشركاء في اعتقاد أولئك المشركين، وهٰذا ليس بصواب في التفسير، وإنما الصواب أن يُرْجَعَ الموضع الذي نَفَىٰ فيه أن يكونوا شركاء، أو آلهة فيما يقضي به العلم، فإنه ليس ثَمَّ عِلْمٌ يُثْبِتُ كونهم شركاء أو كونهم آلهة، وإنما ذلك بناء علىٰ ظن أولئك، وهٰذا له نظائر كثيرة في القرآن.

وهٰذا من القواعِدِ الْمُهِمَّةِ في التوحيد، وفي فَهْمِ طريقة القرآن، لأن كثيرين من أهل التفسير يغلطون في هٰذا الموضوع، قال جل وعلا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾، والسُّلْطَانُ المقصودُ به الْحُجَّةُ، وفي القرآن يُنَوِّعُ ذِكْرَ الْحُجَّةِ إلىٰ أنواع، وهي مُتَّفِقَةٌ في الدلالة لكنها مختلفة في القوة، فيقال: آيةٌ، وبرهانٌ، وحُجَّةٌ، وسُلْطَانٌ، ودليلٌ، وأشباه ذلك، فالآيةُ أعظمُ ما يُحْتَجُّ به، وبعدها الْبَرَاهِينُ، وبعدها الْحُجَجُ، ويليها السُّلْطان.

أما الآيةُ فأمثلتها كثيرة في القرآن.

والْبُرْهَان: منه قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [البقرة]، وقول تعالىٰ: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ [القصص:٣٢] وأشباه ذلك.

والحُجَّة: منه قوله تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام:٨٣].

والسُّلْطَانُ: كقوله تعالىٰ: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [يونس]، وكقوله تعالىٰ هنا: ﴿وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾.

وسُمِّيَتِ الْحُجَّةُ والآيَةُ والْبُرْهَانُ سُلْطَانًا، لأجل أنها تُسَيْطِرُ علىٰ النفوس وتُلْزِمُهَا بِقَبُولِهَا، ولذلك صَارَتْ قَوِيَّةً، أَقْوَىٰ من الأدلة المعتادة، أو يستدل به علىٰ المختلف فيه، وهٰذا واضح ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾.

سؤال: ...

الجواب: كل ما يُعتقد أو يُعمل به لا بُدَّ فيه من حُجَّةٍ أو سُلْطَانٍ، فإذا أضيف إلىٰ الله جل وعلا، أو إلىٰ دِينِهِ، أو إلىٰ رسله فلا بُدَّ فيه من سلطان، لأنه لا يكون عن طريق الهوىٰ ولا الظن، فالظَّنُّ المقصود به هنا، الظن في الْبُرْهَانِ، وفي النِّسْبَةِ، فهٰذا لا يكفي، فلا بُدَّ من عِلْمٍ أنها من الدِّينِ وأنها من الرُّسُلِ، وأن الله جل وعلا أنزلها وجاء بها، وهٰذه الآلهة إنما جِيءَ بها من جهة الأقيسةِ والاستحسان، والعرب والمشركون يعلمون أن آلهتهم هٰذه لم يُنْزِلِ الله بها من سُلْطَانٍ، ولكن اتخذوها آلهة للتقريب، لأنهم ليسوا بأهل لما هم عليه من الْأَوْزَارِ لأن يخاطبوا الله جل وعلا أو أن يَدْعُوهُ مباشرةً فاتخذوها بالأقيسة، كما في قصة عَمْرِو بْنِ لُحَيٍّ في مجيئه ببعض الأوثان ونصبها في بلاد العرب، فمبناهم جميعًا علىٰ الظَّنِّ ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ واتِّبَاعُ الظن مقابل لاتباع الْحُجَّةِ في الأمور الاعتقادية.

إن أُمُورَ العبادات وأمور الشرائع مَبْنِيَّةٌ علىٰ العلم، والعلم قسمان: عِلْمٌ يقيني، وعلم نظري. والظَّنُّ الذي يُسَمِّيهِ الناسُ ظَنًّا يعني في العقائد وغيره يدخل في العلم النظري إذا صح الحديث به، ويدخل في العلم اليَقِينِيِّ إذا كان مُتَواتِرَ الثُّبُوتِ قَطْعِيَّ الثُّبُوتِ، وجهة الظن في الآية ليس المراد منأهل الأصول ما يقابل العلم، فليس المقصود بالظن هنا أنه لا توجد حُجَّةٌ عليه.

الدرس الخامس

ثُمَّ قَالَ: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾ أَيْ: لَيْسَ كُلُّ مَنْ تَمَنَّىٰ خَيْرًا حَصَلَ لَهُ، ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [النِّسَاءِ: ١٢٣]، مَا كُلُّ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ مُهْتَدٍ يَكُونُ كَمَا قَالَ، وَلَا كُلُّ مَنْ وَدَّ شَيْئًا يَحْصُلُ لَهُ.

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانة، عَنْ عُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا تَمَنَّىٰ أَحَدُكُمْ فَلْيَنْظُرْ مَا يَتَمَنَّىٰ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَا يُكْتَبُ لَهُ مِنْ أُمْنِيَتِهِ». تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾ أَيْ: إِنَّمَا الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ، مَالِكِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالْمُتَصَرِّفِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَهُوَ الَّذِي مَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ.

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام علىٰ رسول الله، وعلىٰ آله وصحبه ومن اهتدىٰ بهداه، اللّٰهمَّ علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا، وزدنا من العلم والعمل يا أرحم الراحمين.

اللّٰهمَّ صل وسلم وبارك علىٰ عبدك ورسولك محمد.

أما بعد؛ فقول الله جل وعلا: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾ هٰذه الآية عَطْفٌ علىٰ ما سَبَقَ من الآيات، والعطف بـ(أَمْ) في مَقَامِ تَقْدِيرِ جُمْلَةٍ مَحْذُوفَةٍ تُنَاسِبُ السِّيَاقَ، وتارة تكون مَذْكُورَةً.

وقوله هنا: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾ يعني: ما يتمناه في أَمْرِ هُدَاهُ وفي أمر ضَلَالِهِ، والإنسان يَتَمَنَّىٰ دائمًا أن يكون مُهْتَدِيًا، وقد يكون مُهْتَدِيًا، وقد لا يكون مهتديًا، بل قد يكون ضَالًّا، وحقيقة الأمر أن الاهتداء باتباع ما جاء من الله جل وعلا، ولهٰذا قال تعالىٰ قبلها: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾، فحقيقة الاهتداء الذي توافق فيه الْحَقِيقَةُ الأُمْنِيَةَ أن يكون مُتَّبِعًا لما جاء من عند الله جل وعلا، فهٰذا هو الذي اتَّبَعَ الْعِلْمَ ولم يَتَّبِعِ الظَّنَّ، وقول الحق جل وعلا: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾ راجع إلىٰ ذلك المعنىٰ، وهو تَمَنِّيهِ الخيرُ له، إِمَّا من الْهُدَىٰ، أو من الْمَالِ، أو الْمَغْفِرَةِ، أو الْغِنَىٰ، أو حُسْنِ السَّعَادَةِ في الدنيا أو في الآخرة، إلىٰ غير ذلك.

وقد جاء في مواضع من القرآن ذَمُّ الأُمْنِيَةِ والأَمَانِي بِشَكْلٍ عام، إلا إذا صَدَّقَتْهَا الأعمالُ كما قال جل وعلا: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾[النساء:١٢٣]، فقوله تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ

بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ فيه ذَمُّ الأماني، لأن الأماني في الغالب من الشيطان كما قال جل وعلا: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ ﴾[النساء]، فَلِهٰذا صَارَ التَّمَنِّي فِي الْجُمْلَةِ مَذْمُومًا وَالرَّجَاءُ مَحْمُودًا؛ لأَنْ الأماني غالِبُهَا من تَسْوِيلِ الشيطانِ لِيَكُونَ للمرء اسْتِئْنَاسٌ بما تَمَنَّىٰ ومعه تركٌ للعمل، كما هو ظَاهِرٌ.

وأصل كَلِمَةِ أُمنِيَة من الاتباع، ولهٰذا يقال في لفظها أُمْنِيَة بالتَّخفِيفِ وأمنيَّة بالتَّشْدِيدِ، والتشديد أيضًا بخصوصه، يقال للقراءة: تَمَنَّىٰ إذا قرأ أمنيَّة، يعني قراءة كما قال جل وعلا في سورة الحج: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [الحج:٥٢]، قال: ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ يعني: قرأ ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾ يعني: في قراءته، وهٰذا راجع إلىٰ أَصْلِ الْمَعْنَىٰ اللُّغَوِي وهو الاتباع، لأن القارئ يَتْبَعُ، وكذلك الْمُتَمَنِّي يَتَّبِعُ هواه، ويَتَّبِعُ ما يُلْقِيهِ الشيطان، وتَمَنَّىٰ معناه: من يأمل الأشياءَ علىٰ غَيْرِ حَقِيقَتِهَا.

فـإذن قولـه هنـا: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ مـن الأمـاني، كمـا في قولـه تعـالىٰ: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ ﴾ [النساء:١٢٠]، وكما في قوله في الآية التي ذكرها: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ ﴾ [النِّسَاءِ: ١٢٣].

ومن الاشتقاق: الْمَنِيُّ، وقيل لماء الرجلِ مَنِيٌّ، والرجل أَمْنَىٰ، لأنه يَخْرُجُ مُتَتَابِعًا يَتْبَعُ بعضه بعضا، إلىٰ غير ذلك من اشتقاق المادة الأكبر والأصغر.

والإنسان: المقصود به في الآية جِنْسُ الإنسان، وغالبُ ما جاء لفظ الإنسان في القرآن علىٰ جِهَةِ الذَّمِّ، فإذا أُطْلِقَ الإنسانُ من حيث هو لفظ يُطْلَقُ مَذْمُومًا لا علىٰ صفته من جهة كونه إنْسِيًّا، ولكن هٰذا هو الاستعمال، وهٰذا كثير الشواهد في القرآن كما في قوله تعالىٰ: ﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ ﴾ [مريم]، وكما في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ ﴾ [العصر]، وكما في قوله تعالىٰ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ ﴾ [الإنسان] وأشباه ذلك.

وقوله ﷻ: ﴿ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ هٰذا إنكار، يعني: ليس للإنسان ما يَتَمَنَّاه، بل للإنسان كَسْبُهُ وعَمَلُهُ، وما قُدِّرَ عليه، وهٰذا إنما يكون بما تُصَدِّقُهُ من الأعمال.

قول الله جل وعلا: ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ﴾ اللام هنا في قوله: ﴿فَلِلَّهِ﴾ هي لام الْمِلْكِ، يعني أن الآخرة والأولىٰ مِلْكٌ لله جل وعلا، واللام لها عدة اسْتِعْمَالَات منها:

الأول: أن تكون اللامُ لام مِلْكٍ وتَمْلِيكٍ، كما في قولك: الكتاب لي. يعني أنه مِلْكٌ لي.

الثاني: أن تكون اللام للاختصاص، كما يقال: الورق للكتاب. أو كما يقال: السَّرْجُ للدَّابَّةِ، والماء للسيارة. وأشباه ذلك مما لا يكون فيه المضاف إليه لا يصلح للملكية، لأن الدَّابَّةَ لا تَصْلُحُ للتَّمَلُّكِ، وكذلك الكتاب لا يصلح لتملك الورق، فيقال: الورق للكتاب. يعني أن الورق مختص بالكتاب، لأن الورق لا يصلح للتملك، وكذلك السَّرْجُ للدَّابَّةِ، الدَّابَّةُ لا تصلح أن تكون مَالِكَةً، فالسُّرُجُ لها من جهة الاختصاص وهكذا.

والثالث من الأنواع: أن تكون اللَّامُ للاستحقاق، وضابطها: أن يكون ما قبلها من المعاني، وتُضَافُ إلىٰ من يَسْتَحِقُّ الْمَعْنَىٰ، أو من يُنَاسِبُهُ المعنىٰ، مثل إضافة الصفات كالْعُلُوِّ لله، و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يعني: الحمد مُسْتَحِقٌّ لله جل وعلا.

فمعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾ اللام لازم الملك يعني: أن الإنسان إذا تَمَنَّىٰ لم يَمْلِكْ شيئًا، لأن الله جل وعلا هو المالك للآخرة والأولىٰ، فإذا تَمَنَّىٰ أن يكون مُهْتَدِيًا في الدنيا، سَعِيدًا بالآخرة، فليس له ذلك، يعني: أن يكون علىٰ وَصْفِ ما تَمَنَّىٰ، بل لهٰذا لله، لأنه هو الذي له الآخرة والأولىٰ.

وتقديم الجار والمجرور في قوله: ﴿فَلِلَّهِ﴾ علىٰ المبتدأ ﴿ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾ تفيد في هٰذا المقام الاخْتِصَاصَ والْحَصْرَ والْقَصْرَ، بما يكون معه إِبْطَالٌ لأَمَانِيِّ الْمُتَمَنِّينَ، فليس لأحدٍ نَصِيبٌ في مُلْكِ الله جل وعلا، بل هو الذي يَتَصَرَّفُ كيف يشاء، فإذن الأماني لا وجه لها، وإنما الذي يَجِبُ أن يَعْمَلَ المرءُ، وأن يجتهد، أما الأماني فإنها خَدَّاعَةٌ ومن الشيطان، كما قال: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾[النساء].

و﴿ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾: اسمان للحياة البَاقِيَةِ والحياة الفَانِيَةِ، فالْأُولَىٰ هي الحياة الفَانِيَةُ والآخرة هي الحياة الباقية، وقيل فيها أولىٰ وآخرة لأحد اعتبارين:

الاعتبار الأول: أن أنواع الحياة قسمان: دُنْيَا، وأخرىٰ، والدنيا هي الأولىٰ، والأخرىٰ هي الآخرة، فتكون آخرة باعتبار أن ثَمَّ قَبْلَهَا أُولَىٰ.

الاعتبار الثاني: أن أنواع الحياة ثلاث: أُولَىٰ، ومتوسطة وهي الْبَرْزَخُ، وآخرة وهي الباقية، وهٰذا

التقسيم هو الْأَوْلَىٰ هنا، لأن الأُولَىٰ يَقْتَضِي أن ثَمَّ ثانية.

فقوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ﴾ يعني: فلله الحياة الآخرة، وله الحياة الأولىٰ التي هي مَدَارُ العمل، وله الحياة الآخرة التي هي دار الجزاء، وما بينهما التي هي دار البَرْزَخِ، أيضًا هي لله جل وعلا، لكن الجزاء الأعظم في الدار الآخرة، وكونها آخرة لأنها جاءت متأخرة، أو تجيء متأخرة، وتقديم الآخرة علىٰ الأولىٰ لأنها مَحِلُّ طَمَعِ الطَّامِعِينَ في شفاعة الآلهة، لأنه قال قبلها: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾﴾، وتعلق المشركين بآلهتهم لأجل الآخرة، وقَدَّمَهَا لما في قلوبهم من ذلك في هٰذا الموطن بخصوصه؛ ولهٰذا جاء بعدها: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْمَوَىٰٓ..﴾ الآية.

وَقَوْلُهُ: ﴿ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٥٥]، ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سَبَأ: ٢٣]، فَإِذَا كَانَ هٰذا فِي حَقِّ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ، فَكَيْفَ تَرْجُونَ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ شَفَاعَةَ هٰذه الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ عِنْدَ اللهِ، وَهُوَ لَمْ يُشَرِّعْ عِبَادَتَهَا وَلَا أَذِنَ فِيهَا، بَلْ قَدْ نَهَىٰ عَنْهَا عَلَىٰ أَلْسِنَةِ جَمِيعِ رُسُلِهِ، وَأَنْزَلَ بِالنَّهْيِ عَنْ ذلك جميع كتبه؟.

قوله تعالىٰ:﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ ﴾ هٰذا للتَّكْثِيرِ، التَّكْثِيرُ باعتبار عبادة العابدين، لأن المشركين لم يعبدوا جميع الملائكة، وإنما عَبَدُوا كَثِيرًا من الملائكة.

﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا ﴾ لا يُفْهَمُ منه أن هناك ملائكة تُغْنِي شفاعتهم شيئًا، يعني الملائكة الذين عُبِدُوا، وهم كَثِيرٌ فقال: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ..﴾ الآية.

ومَلَكٌ مُخَفَّفَةٌ من مَلأك، من أجل كثرة الاستعمال، وأصل ملأك مألك لكنها مقلوبة، وهٰذه مُشْتَقَّةٌ من الْأُلُوكَةِ التي هي الرِّسَالَةُ، لأن أصل هٰذه المادة أَلَكَ يَأْلِكُ أُلُوكَةً، إذا أَرْسَلَ؛ كما قال الشاعر:

أَلِكْنِي إليها وخَيْرُ الرَّسُولِ أَعْلَمُهم بِنُوَاحِي الخَبَرْ

ألكني إليها أي: أَرْسِلْنِي إليها.

فالملائكة مُرْسَلُونَ يرسلهم الله جل وعلا لما شَاءَ من الْأَوَامِرِ، فَيُوَكِّلُهُمْ ﷻ بما يشاء أن يُوَكِّلَهُمْ به من أمر الْمَلَكُوتِ، فمنهم من وَكَّلَهُ بالموتِ، ومنهم من وَكَّلَهُ بالْقَطْرِ، ومنهم من وَكَّلَهُ بِكَذَا وكذا.

المقصود من هٰذا أن لفظ الْمَلَكِ يُشْعِرُ بإبطالِ عِبَادَتِهِ؛ لأن الْمَلَكَ مُرْسَلٌ، والعَابِدُ يجب عليه أن يَعْبُدَ الْمُرسِلَ لا الْمُرسَلَ، وفي هٰذا إِبْطَالٌ لما يشترك معه الْمَلَكُ في الْمَعْنَىٰ من البشر وهم الرُّسُلُ، فإن الرُّسُلَ أيضًا لا تُغْنِي شفاعتهم شيئًا، لأنهم مُرْسَلُونَ، والملائكةُ مُرْسَلُونَ.

فإذن دلنا هٰذا البحث اللُّغَوِيُّ والْعَقَدِيُّ علىٰ أن الآية فيها إبطال لِطَلَبِ شَفَاعَةِ الملائكةِ، وأنها لم تُغْنِ شيئًا، لأنهم مُرْسَلُونَ عُبَّادًا، وليسوا مَعْبُودِينَ، وبمفهومها اللغوي دَلَّتْ علىٰ أن الأنبياء والرسل أيضًا لا تُغْنِي شفاعتهم شيئًا، إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضىٰ، والله ﷻ لا يرضىٰ بذلك ولا يَأْذَنُ بِهِ شَرْعًا.

فالله جل وعلا لا يأذن لِمَلَكٍ أن يشفع لمشركٍ به، وكذلك لم يأذن الله جل وعلا كَوْنًا ولا شَرْعًا لرَسُولٍ أن يشفع بعد موته لمن يشرك به، وإنما يأذن ﷻ في الحياة كونا وشَرْعًا للرُّسُلِ أن يَدْعُو لِأَقْوَامٍ قد يَسْتَجِيبُ وقد يَرُدُّ دَعْوَتَهَمْ، ويأذن في الآخرةِ بَعْدَ السُّؤَالِ والدُّعَاءِ.

فالمقصود من هٰذا الانتباه إلىٰ الارتباط في القرآن بين الألفاظِ اللُّغَوِيَّةِ والْمَبَاحِثِ الْعَقَدِيَّةِ، وهٰذا مفيد في فَهْمِ كيفية إقامة الْحُجَّةِ علىٰ المشركين بالألفاظ اللُّغَوِيَّةِ، وإبطال ما يَعْتَقِدُونَ بهم بالتَّنْبِيهِ علىٰ اللفظ مثل ما في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾[يونس] ما يتبع هؤلاء ؟ هل هم يَتَّبِعُونَ عِلْمًا؟ أم يَتَّبِعُونَ جَهْلًا وظَنًّا؟ قال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾، وهٰذا توجيه إلىٰ برهان لُغَوِيٍّ وعَقْلِيٍّ في رَدِّ الاعتقاد الباطل.

وبهٰذا نقول: رَدُّ الاعتقادات الباطلة يَنْبَنِي في القرآن علىٰ أشياء منها: الْمَبَاحِثُ اللُّغَوِيَّةُ واللَّفْظِيَّةُ، ومنها المباحث العقلية.

والله جل وعلا أَبْطَلَ عِبَادَةَ الْمَعْبُودَاتِ، وأبطل رَدَّ النُّبُوَّاتِ، ورد البَعْثِ بدلائلِ لُغَوِيَّةٍ ودلائل عقلية، بالإضافة إلىٰ أنواع الدلائل الأخرىٰ.

قوله جل وعلا: ﴿لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ وهٰذا فيه العموم، فالنكرة في سياقِ النَّفْي تعم جميع الأشياء.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ فيه البحث الذي مَرَّ في «كشف الشبهات»، وفي «العقيدة الواسطية» مُفَصَّلًا في مسألة الشفاعة، وتحقيقه واختصاره أن الشفاعة نوعان:

شفاعة شِرْكِيَّةٌ: وهي التي يَطْلُبُهَا المشركون من آلهتهم، إما مباشرة في طَلَبِ الشَّفَاعَةِ أن يقولوا: اشفعوا لنا، وإما بالعبادة لأجل الشفاعة كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾[يونس:١٨] عَبَدُوا لأجل الشفاعة، أو طَلَبُوا الشفاعة مباشرة ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر].

الشفاعة الشَّرْعِيَّةُ: وهي الشَّفَاعَةُ الْمُثْبَتَةُ، وهٰذه لا بُدَّ لها من شرطين: الأول: الإذن. والثاني: الرِّضَا.

إِذْنُ اللهِ للشَّفِيعِ أن يَشْفَعَ، والرِّضَا عَنِ الشَّفِيعِ وعن الْمَشْفُوعِ له.

والإِذْنُ نوعان: إذن كوني، وإذن شرعي.

والرضا يكون عن الشَّافِعِ والْمُشْفُوعِ له، وقد يكون الشَّافِعُ مَرْضِيًّا؛ ولكنَّ الْمُشْفُوعَ له غيرُ مَرْضِيٍّ فلا

يُؤْذَنُ له بالشفاعة، وقد يكون الشافع غَيْرَ مَرْضِيٍّ والمشفوع له مَرْضِيًّا فلا يؤذن له بالشفاعة، كما قال جل وعلا في آخِـر سورة الزخرف: ﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

الدرس السادس

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ۖ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُنْكِرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي تَسْمِيَتِهِمُ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَىٰ، وَجَعْلِهِمْ لَهَا أَنَّهَا بَنَاتُ اللهِ، كَمَا قَالَ: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾﴾[الزُّخْرُفِ]؛ وَلِهٰذا قَالَ: ﴿وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ ۖ﴾ أَيْ: لَيْسَ لَهُمْ عِلْمٌ صَحِيحٌ يُصَدِّقُ مَا قَالُوهُ، بَلْ هو كذب وزور وافتراء، وكفر شنيع. ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ۖ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٨﴾﴾ أَيْ: لَا يُجْدِي شَيْئًا، وَلَا يَقُومُ أَبَدًا مَقَامَ الْحَقِّ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ».

وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ أَيْ: أعرِضْ عَنِ الَّذِي أعرَضَ عَنِ الْحَقِّ وَاهْجُرْهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾ أَيْ: وَإِنَّمَا أَكْثَرُ هَمِّهِ وَمَبْلَغُ عِلْمِهِ الدُّنْيَا، فَذَاكَ هُوَ غَايَةُ مَا لَا خَيْرَ فِيهِ. وَلِذَلِكَ قَالَ: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ۚ﴾ أَيْ: طَلَبُ الدُّنْيَا وَالسَّعْيُ لَهَا هُوَ غَايَةُ مَا وَصَلُوا إِلَيْهِ.

وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الدُّنْيَا دَارُ مَنْ لَا دَارَ لَهُ، وَمَالُ مَنْ لَا مَالَ لَهُ، وَلَهَا يَجْمَعُ مَنْ لَا عَقْلَ لَهُ» وَفِي الدُّعَاءِ الْمَأْثُورِ: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا، وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا».

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾ أَيْ: هُوَ الْخَالِقُ لِجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَالْعَالَمُ بِمَصَالِحِ عِبَادِهِ، وَهُوَ الَّذِي يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ، وَذَلِكَ كُلُّهُ عَنْ قُدْرَتِهِ وَعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ، وَهُوَ الْعَادِلُ الَّذِي لَا يَجُورُ أَبَدًا، لَا فِي شَرْعِهِ وَلَا فِي قَدَرِهِ.

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله، وعلىٰ آله وصحبه، ومن اهتدىٰ بهداه، اللّٰهمَّ نسألك علما نافعا، وعملا صالحا، وقلبا خاشعا، ودعاء مسموعا، نعوذ بك اللّٰهمَّ أن نزل أو نزل، أو نضل أو نضل، أو نظلم أو نظلم، أو نجهل أو يجهل علينا.

أما بعد؛ فهذه السورة سُورَةَ النَّجْمِ مُشْتَمِلَةٌ علىٰ تَقْرِيرِ تَوْحِيدِ الله جل وعلا، وذِكْرِ صِفَاتِهِ سُبْحَانَهُ، والردِّ علىٰ المشركين فيما ادَّعُوهُ في صفات الله أو في توحيده، وكذلك فيها تقريرُ الرِّسَالَةِ، وتَقْرِيرُ الْبَعْثِ، وأُصُولُ الدِّينِ.

وفي هٰذه الآيات قال الله جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾﴾ فيها إنكارٌ علىٰ أُولَئِكَ وتَأْكِيدٌ لهٰذا الخبر بـ(أنَّ واللَّامِ)، ومن المقرر في علوم البلاغة أن تأكيد الكلام بـ(إن واللام) إِنَّمَا يَكُونُ في حق من هو مُنْكِرٌ لَهُ، أو مُنَزَّلٌ مَنْزِلَةَ الْمُنْكِرِ، فيقول القائل: محمدٌ قادمٌ. لمن ليس عنده علم بالخبر أصلًا، أما إذا كان الْمُخْبَرُ مُنْكِرٌ لذلك، أو يُنَزَّلُ مَنْزِلَةَ الْمُنْكِرِ لجذب انتباهه، أو لأن دَلَائِلَ الحال تَدُلُّ علىٰ أنه يَمِيلُ إلىٰ الإنكار، فإن الكلام يُؤَكَّدُ باللام، فيقال: لَمُحَمَّدٌ قادمٌ. ثم يزاد التأكيد بـ(إن واللام) جميعًا، فيقال: إنَّ محمدًا لَقَادِمٌ.

فغير مناسب أن يقال لمن هو خَالٍ عَنِ الْخَبَرِ: إنَّ محمدًا قادم، أو لَقَادِمٌ. بالتأكيد، وإنما يقال لغرض من أغراض البلاغة وهو: تنـزيل المستمع أو المتلقي للخبر مَنْزِلَةَ الْمُنْكِرِ، أو من هو مُنْكِرٌ، أو مُكَذِّبٌ في نفس الأمر، وهٰذا هو الواقع في هؤلاء المشركين الذين سَمُّوا الملائكة تَسْمِيَةَ الْأُنْثَىٰ، والذين لا يؤمنون بالآخرة فإنهم منكرون أن الملائكة خلق من خلق الله، وأن الله خلقهم من نُورٍ، وأنهم ليسوا بِبَنَاتِ الله ﷻ.

والمشركون ادَّعَوْا في الملائكة ثلاثة أشياء:

الأول: أن الملائكة إناث، كما قال ﷻ: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الزخرف].

الثاني: أنهم بنات لله جل وعلا كما قال ﷻ: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الصافات].

الثالث: أَنَّهُمْ عَبَدُوا الملائكة، واتخذوهم وَسَائِطَ تُقَرِّبُهُمْ إلىٰ الله جل وعلا كما قال ﷻ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ].

فإذن هؤلاء ادَّعَوْا هٰذه الدعاوىٰ الثلاث، أن الملائكة إناث، وأنها بنات الله، وأنها تُدْعَىٰ وتُسْأَلُ وتُتَّخَذُ أولياء، وهم يُنْكِرُونَ أنهم نَزَّلُوهَا هٰذه المنزلة، ولهٰذا أُنْكِرَ عليهم أنهم يَأْبَوْنَ أن تكون لهم الإناث،

ويجعلون لله جل وعلا البنات ﷻ.

قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾﴾ الآخرةُ سُمِّيَتْ آخِرَةً لأن الدنيا والآخرة شيئان، أحدهما أُولَىٰ والثانية أُخرىٰ، وهما في التمثيل يومان، يوم أول ويوم آخِر، ولهٰذا قيل في الآخرة: اليوم الآخِرِ، وصار من أركان الإيمان اليوم الآخر، ويكون اليوم الأول هو يوم الدنيا.

وقوله: ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ جَمْعُ مَلْأك، وملْأك أصلها مقلوب عن مَأْلَك، لأنها مأخوذة من الْأُلُوكَةِ وهي الرِّسَالَةُ، فأصلها أَلَكَ يَأْلِكُ أَلُوكَةً، يعني أَرْسَلَ يُرْسِلُ رِسَالَةً خاصة، والعرب إذا أَرْسَلَتْ رِسَالَةً خاصة مع مُعَظَّمٍ قيل لذلك أَلُوكَةً كما قال الشاعر:

أَلِكْنِي إليها وخَيْرُ الرَّسُولِ أَعْلَمُهم بِنَوَاحِي الخَبَرْ

فجمع بين كونه قال: أَلِكْنِي، وكونه رسولًا، فدل هٰذا علىٰ أن أصل مادة مَلَائِكَةٍ في لغة العرب تدل علىٰ الإرسال، وهٰذا يُضَاد أَصْلَ اعتقاد المشركين فيها في تلك الثلاث التي ذكرنا، فَهُمْ نَقَضُوا أنفسهم بِلُغَتِهِمْ، وأَبْطَلُوا اعتقادهم بلغتهم، لأنهم إذ سَمَّوْهَا الملائكة، فإنه لا يصلح أن تكون بنات لله، ولا يصلح أن تكون معبودات لأنها مُرْسَلَةٌ، فالعرب سَمَّتْهَا في اللغة بما جاء من ميراث الرسالات، سُمِّيَتْ ملائكة لهٰذا الغرض، ففي التسمية إبطال لكونها بنات لله جل وعلا، وإبطال لكونها تُعْبَدُ من دون الله أو مع الله، لأنَّهَا مُرْسَلَةٌ.

فملائكة يعني أنّهم مُرْسَلُونَ كما قال ﷻ: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾[الحج:٧٥]، فالملائكة رُسُلٌ يَصْطَفِي الله جل وعلا منهم أهل رسالة خاصة، للوحي، أو لإنزال الغيث، أو نحو ذلك، وكل الملائكة يقومون بأعمال تُوكَلُ إليهم من رب العالمين، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة:١١]، والآيات في هٰذا المعنىٰ كثيرة.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ﴾ الحقائق في اللغة تنقسم إلىٰ ثلاثة أقسام: الأول: علم. والثاني: ظن. والثالث: كذب.

والظنَّ: يَعُمُّ ما كان مُسْتَوِيَ الطرفين، وهو ما لم يَقُمْ دَلِيلٌ عليه، لكن الذي يذهب إليه يَمِيلُ إليه، ولا دليل عَلَيْهِ، هٰذا من جهة اللغة.

والعلم: ما قَامَ الدَّلِيلُ عليه إما بدليل حِسِّيٍّ ضَرُورِيٍّ بأحد الحواس، وإما بدليل برهاني، إما باستقراء أو ببرهان.

والْكَذِبُ: عند أهل اللغة هو مخالفة الْخَبَرِ للواقع سواءً أكان متعمدًا أو مُجَرَّدًا.

فالله جل وعلا بَيَّنَ لنا في هٰذه الآية أن أولئك المشركين في تَسْمِيَتِهِمُ الملائكة تسمية الأنثىٰ أنهم ليس لهم بذلك علم، وإنما يَتَّبِعُونَ الظَّنَّ، والظَنُّ لا يُغْنِي من الحق شيئًا، كما قال تعالىٰ هنا: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾.

فهٰذه الآية دَلَّتْ علىٰ أن الواجب علىٰ كل من يَذهَبُ إلىٰ شيء أن يَذْهَبَ إليه عن عِلْمٍ، لا عن اسْتِحْسَانٍ وهَوًىٰ مُجَرَّدٍ بلا دَلِيلٍ يُعتَمَدُ عليه، بل بَيَّنَ سُبْحَانَهُ أن الظَّنَّ لا يُغْنِي من الحق شيئًا، بل جَعَلَ النَّبِيُّ عليه الصلاة والسلام الظنَّ أكذبَ الْحَدِيثِ فقال عليه الصلاة والسلام: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ».

وقوله تعالىٰ هنا: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ مَجِيءُ (من) في النَّفْي أفاد الاسْتِغْرَاقَ أو التَّنْصِيصَ علىٰ العموم في أنواع العلوم، فليس لهم من عِلْمٍ بذلك لا من جِهَةِ الرُّسُلِ، ولا من جهة الرؤية، حيث إنهم رأوا الملائكة، ولا من جهة الدَّلِيلِ البُرْهَانِي، فَكُلُّ أنواع العلوم ليس لهم بها عِلْمٌ، يعني تسمية الملائكة تسمية الأنثىٰ، لهٰذا قال سبحانه هنا: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ وقدم (لهم) مع أن حقها التأخير، لأن التَّنْصِيصَ علىٰ العموم بمجيء (من) الزائدة قبل النَّكِرَةِ يُقَدَّمُ قَبْلَهُ خَبَرٌ مَا أو ما يَتَعَلَّقُ بِخَبَرٍ مَا.

قال ﷻ: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ (إن) و(إلا) للحصر والاتباع، ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ الاتباع هو: السَّيْرُ وراء الشيءِ، فتَبِعَهُ، يعني: سَارَ وراءه مُقْتَفِيًا أَثَره، ولهٰذا جاء الأمرُ باتِّبَاعِ الرُّسُلِ عليهم صلوات الله وسلامه قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١]، ونحو ذلك من الآيات، يعني: اقْتَفُوا هٰذا الأَثَرَ وامْشُوا وراءه مُقْتَفِينَ أَثَرَهُ.

وقوله تعالىٰ عنهم: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ فكَأَنَّهُمْ يريدون الظن ويبحثون عنه، ولا يبحثون عن العلم أصلًا فهم يَقْتَفُونَ أَثَرَ الظَّنِّ فَكَأَنَّ الظَّنَّ مقصودٌ لَهُمْ فيما يريدون، فلهٰذا عَبَّرَ بـ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ الذي يُفِيدُ بحثهم وراء الظن، وفي هٰذا تَبْكِيتٌ لَهُمْ، وفيه إِزْرَاءٌ عليهم، وإِبْعَادٌ لَهُمْ عن الْعِلْمِ، لأن الظَّنَّ لا يُتَّبَعُ، بل الذي يُتَّبَعُ العلمُ، والذي يُبْحَثُ عنه هو الْعِلْمُ، فهؤلاء يبحثون عن الظن، وهٰذا جَارٍ علىٰ كُلِّ مُعْتَقَدَاتِهِمْ.

كثيرٌ من الآيات في القرآن فيها ذِكْرُ اعْتِمَادِ المشركين والكفار علىٰ الظُّنُونِ، وليس عندهم اعتماد علىٰ الْعِلْمِ، وما جاء في بعض الآيات من وَصْفِهِمْ بِالْعِلْمِ أو مُجَادَلَتِهِمْ بالعلم فالمقصود منه بحسب نظرهم واعتقادهم أنهم يريدون العلم، وهم إنَّمَا يَتَّبِعُونَ الظَّنَّ.

فقوله سبحانه: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ فِيها حَصْرٌ لأنَّ (إن) هٰذه نافية، و(إلا) تُفِيدُ الْحَصْرَ، والْحَصْرُ له أنواعٌ ومقتضيات في علم المعاني من علوم البلاغة معروفة في موضعها.

قال: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾ تقرير وتأكيد لهٰذا الأمر العظيم، وهو النَّهْي عن اتِّبَاعِ الظَّنِّ، فالظَّنُّ لا يفيد في الْحَقِّ، والْحَقُّ دَلِيلُهُ العلم الناشئ عن دليل واضح بَيِّنٍ يَدُلُّ علىٰ الْمُرَادِ.

قال ﷻ: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾ (أَعْرِضْ) هٰذا أَمْرٌ بِتَرْكٍ ومُجَانَبَةٍ وهَجْرٍ من تَوَلَّىٰ عن ذِكْرِنَا ولم يُرِدْ إلا الحياة الدنيا.

أصل كلمة أَعْرَضَ: أن يُعْطِيَ الْمَرْءُ الآخَرَ عُرِضْهِ بضمِّ العين، وهو جَانِبُهُ، كما تقول العرب: إرم بهٰذا الكلام عُرَضَ الْحَائِطِ. بِضَمِّ الْعَيْنِ، يعني جَانِبَ الْحَائِطِ. فهو مأخوذ من العُرضِ، لأن مَنْ تَرَكَ كَلامًا، أو تَرَكَ مُتَكَلِّمًا فإنه يعطيه جَانِبَهُ.

وفي هٰذا أيضًا أدبٌ، وهو أن التَّارِكَ أو الْمُنْكِرَ يُعْرِضُ عنه.

وفيه التَّرْكُ بشيءٍ من الأَدَبِ فقال سبحانه هنا: ﴿فَأَعْرِضْ﴾ وهٰذا أَمْرُ إيجاب.

فقوله تعالىٰ: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾ معناه: هؤلاء الذين هٰذه صفتهم لا تَنْشَغِلْ بهم، ولا تَطْلُبْ زَكَاتَهُمْ وإيمانهم، فإن هؤلاء مَضَىٰ فيهم قَدَرُ الله، ومَضَتْ فيهم كلمة الله جل وعلا، كما قال سبحانه: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾﴾ [عبس] إلىٰ آخر الآيات.

فقوله ﷻ هنا: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ فيه تَنْبِيهٌ للرَّسُلِ، للنَّبِيِّ عليه الصلاة والسلام، ولِجَمِيعِ من يَدْعُونَ بِدَعْوَةِ الرُّسُلِ أَلَّا يَعْتَنُوا بِمَنْ أَعْرَضَ عن ذكر الله، وأراد الحياة الدنيا، بل يَصْبِرُونَ أَنْفُسَهُمْ مع الذين يَبْتَغُونَ وجه الله جل وعلا، كما قال ﷻ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف]، فَدَلَّتِ الآيةُ علىٰ أن الدعاة إلىٰ دين الله أتباع الرسل، لا يَنْبَغِي لهم أن يَتَتَبَّعُوا الْمُعْرِضِينَ عن

ذكر الله، الذين لا يريدون إلا الحياة الدنيا، وأن يَهْتَمُّوا بمـن يَقْبَلُـون رسـالة الله جـل وعـلا، ومـن يقبـل الإيمان، لأن هؤلاء أَطْهَرُ قُلُوبًا، وأَلْيَنُ في استماع الحق، لأنهم لم يُعْرِضُوا، ولم يُرِيدُوا الحياة الـدنيا؛ بـل أَرَادُوا الخير والحق.

وقوله سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ يعني: إن هؤلاء الذين أَرَادُوا الحياةَ الدُّنْيَا، وتَوَلَّوْا عن الذِّكْرِ مَبْلَغُهُم من العلم الحياة الدنيا، مَبْلَغُهُمْ من العلم الظنُّ، فقوله ذلك إمَّا أن يكون راجِعًا إلىٰ الظنِّ، أو إلىٰ أقرب شيء وهو الحياة الدنيا.

﴿ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ يعني: أن حُكْمَ الله جل وعلا هو الذِي يَجِبُ أن يُؤْخَذَ لأن الله سبحانه أَعْلَمُ بالضَّالِّ والمهتدي.

نكتفي لهٰذا..

الدرس السابع

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٣١ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ٣٢ ﴾

يخبر تعالىٰ أنه مالك السَّموات وَالْأَرْضِ، وَأَنَّهُ الْغَنِيُّ عَمَّا سِوَاهُ، الْحَاكِمُ فِي خَلْقِهِ بِالْعَدْلِ، وَخَلَقَ الْخَلْقَ بِالْحَقِّ، ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٣١ ﴾ أَيْ: يُجَازِي كُلًّا بِعَمَلِهِ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ.

ثُمَّ فَسَّرَ الْمُحْسِنِينَ بِأَنَّهُمُ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ، أَيْ: لَا يَتَعَاطَوْنَ الْمُحَرَّمَاتِ وَالْكَبَائِرَ، وَإِنْ وَقَعَ مِنْهُمْ بَعْضُ الصَّغَائِرِ فَإِنَّهُ يَغْفِرُ لَهُمْ وَيَسْتُرُ عَلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَىٰ: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ٣١ ﴾ [النِّسَاءِ]. وَقَالَ هَاهُنَا: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ ﴾ وَهٰذا اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ؛ لِأَنَّ اللَّمَمَ مِنْ صَغَائِرِ الذُّنُوبِ وَمُحَقَّرَاتِ الْأَعْمَالِ.

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، حَدَّثَنَا مَعْمَر عَنِ ابْنِ طَاوُسٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَشْبَهَ باللمم مِمَّا قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قال: «إن اللهَ تَعَالَىٰ كَتَبَ عَلَىٰ ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَىٰ، أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فَزِنَىٰ الْعَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنَا اللِّسَانِ النُّطْقُ، وَالنَّفْسُ تَمَنَّىٰ وتَشْتَهِي، وَالْفَرْجُ يُصدِّق ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبه».

أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»، مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الرَّزَّاقِ، بِهِ.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَىٰ، أَخْبَرَنَا ابْنُ ثَوْرٍ حَدَّثَنَا مَعْمَر، عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي الضُّحَىٰ؛ أَنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ قَالَ: «زِنَىٰ الْعَيْنَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنَا الشَّفَتَيْنِ التَّقْبِيلُ، وَزِنَىٰ الْيَدَيْنِ الْبَطْشُ، وَزِنَىٰ الرِّجْلَيْنِ الْمَشْيُ، ويُصدّق ذَلِكَ الْفَرْجُ أَوْ يُكَذِّبه، فَإِنْ تَقَدَّمَ بِفَرْجِهِ كَانَ زَانِيًا، وَإِلَّا فَهُوَ اللَّمَم». وَكَذَا قَالَ مَسْرُوقٌ، وَالشَّعْبِيُّ.

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ نَافِعٍ -الَّذِي يُقَالُ لَهُ: ابْنُ لُبَابَةَ الطَّائِفِيُّ- قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ عَنْ قَوْلِ اللهِ: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ قَالَ: القُبلة، وَالْغَمْزَةُ، وَالنَّظْرَةُ، وَالْمُبَاشَرَةُ، فَإِذَا مَسَّ الختانُ الختانَ فَقَدْ وَجَبَ الْغُسْلُ، وَهُوَ الزِّنَىٰ.

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ إِلَّا مَا سَلَفَ. وَكَذَا قَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا ابْنُ الْمُثَنَّىٰ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّهُ قَالَ: فِي هٰذه الْآيَةِ: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ قَالَ: الَّذِي يُلِمُّ بِالذَّنْبِ ثُمَّ يَدَعه، قَالَ الشَّاعِرُ:

إِنْ تَغْفِرِ اللهُمّ تَغْفِرْ جَمّا ... وَأيّ عَبْدٍ لَكَ مَا أَلَمَّا؟!

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا ابْنُ حُمَيْدٍ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، فِي قَوْلِ اللهِ: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ قَالَ: الرَّجُلُ يُلِمُّ بِالذَّنْبِ ثُمَّ يَنْزِعُ عَنْهُ، قَالَ: وَكَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ وَهُمْ يَقُولُونَ:

إِنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تغفر جما ... وأي عبد لك ما ألما؟!

وَقَدْ رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَغَيْرُهُ مَرْفُوعًا.

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْجَبَّارِ، حَدَّثَنَا أَبُو عَاصِمٍ، حَدَّثَنَا زَكَرِيَّا بْنُ إِسْحَاقَ، عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ، عَنْ عَطَاءٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ قَالَ: هُوَ الرَّجُلُ يُلِمُّ بِالْفَاحِشَةِ ثُمَّ يَتُوبُ وَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

إِنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمَّا ... وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ مَا أَلَمَّا؟!

وَهٰكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ عُثْمَانَ أَبِي عُثْمَانَ الْبَصْرِيِّ، عَنْ أَبِي عَاصِمٍ النَّبِيلِ. ثُمَّ قَالَ: هٰذا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ، لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ زَكَرِيَّا بْنِ إِسْحَاقَ. وَكَذَا قَالَ الْبَزَّارُ: لَا نَعْلَمُهُ يُروىٰ مُتَّصِلًا إِلَّا مِنْ هٰذا الْوَجْهِ. وَسَاقَهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَالْبَغَوِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي عَاصِمٍ النَّبِيلِ، وَإِنَّمَا ذَكَرَهُ الْبَغَوِيُّ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ «تَنْزِيل» وَفِي صِحَّتِهِ مَرْفُوعًا نَظَرٌ.

ثُمَّ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ بَزِيعٍ، حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ زُرَيْعٍ، حَدَّثَنَا يُونُسُ، عَنِ الْحَسَنِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -أُرَاهُ رَفَعَهُ-: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ قَالَ: «اللَّمَّةُ مِنَ الزِّنَىٰ ثُمَّ يَتُوبُ وَلَا يَعُودُ، وَاللَّمَّةُ مِنَ السَّرِقَةِ ثُمَّ يَتُوبُ وَلَا يَعُودُ، وَاللَّمَّةُ مِنْ شُرْبِ الْخَمْرِ ثُمَّ يَتُوبُ وَلَا يَعُودُ»، قَالَ: «ذَلِكَ الْإِلْمَامُ».

وَحَدَّثَنَا ابْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي عَدِيٍّ، عَنْ عَوْفٍ، عَنِ الْحَسَنِ فِي قَوْلِ اللهِ: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ قَالَ: اللَّمَمُ مِنَ الزِّنَىٰ أَوِ السَّرِقَةِ أَوْ شُرْبِ الْخَمْرِ، ثُمَّ لَا يَعُودُ.

وَحَدَّثَنِي يَعْقُوبُ، حَدَّثَنَا ابْنُ عُلَيَّةَ، عَنْ أَبِي رَجاء، عَنِ الْحَسَنِ فِي قَوْلِ اللهِ: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ قَالَ: كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَقُولُونَ: هُوَ الرَّجُلُ يُصِيبُ اللَّمَّةَ مِنَ الزِّنَىٰ، وَاللَّمَّةَ

مِنْ شُرْبِ الْخَمْرِ، فَيَجْتَنِبُهَا وَيَتُوبُ مِنْهَا.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ، عَنْ عَطَاءٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ يُلِمُّ بِهَا فِي الْحِينِ. قُلْتُ: الزِّنَىٰ؟ قَالَ: الزِّنَىٰ ثُمَّ يَتُوبُ.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ أَيْضًا: حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ عُيَيْنَةَ، عَنْ عمرو، عن عطاء، عن ابن عَبَّاسٍ قَالَ: ﴿ٱللَّمَمَ﴾ الَّذِي يُلِمُّ المرَّةَ.

وَقَالَ السُّدِّيُّ: قَالَ أَبُو صَالِحٍ: سُئِلْتُ عَنْ ﴿ٱللَّمَمَ﴾ فَقُلْتُ: هُوَ الرَّجُلُ يُصِيبُ الذَّنْبَ ثُمَّ يَتُوبُ. وَأَخْبَرْتُ بِذَلِكَ ابْنَ عَبَّاسٍ فَقَالَ: لَقَدْ أَعَانَكَ عَلَيْهَا مَلَك كَرِيمٌ. حَكَاهُ الْبَغَوِيُّ.

وَرَوَىٰ ابْنُ جَرِيرٍ مِنْ طَرِيقِ الْمُثَنَّىٰ بْنِ الصَّبَّاحِ -وَهُوَ ضَعِيفٌ- عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ؛ أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو قَالَ: ﴿ٱللَّمَمَ﴾: مَا دُونَ الشِّرْكِ.

وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، عَنْ جَابِرٍ الجُعفي، عَنْ عَطَاءٍ، عَنِ ابْنِ الزُّبَيْرِ: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ قَالَ: مَا بَيْنَ الْحَدَّيْنِ: حَدِّ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الْآخِرَةِ. وَكَذَا رَوَاهُ شُعْبَةُ، عَنِ الْحَكَمِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، مِثْلَهُ سَوَاءً.

وَقَالَ العَوْفِيّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ كُلُّ شَيْءٍ بَيْنَ الْحَدَّيْنِ: حَدِّ الدُّنْيَا وَحَدِّ الْآخِرَةِ، تُكَفِّرُهُ الصَّلَوَاتُ، وَهُوَ اللَّمَمُ، وَهُوَ دُونَ كُلِّ مُوجَبٍ، فَأَمَّا حَدُّ الدُّنْيَا فَكُلُّ حَدٍّ فَرَضَ اللهُ عُقُوبَتَهُ فِي الدُّنْيَا، وَأَمَّا حَدُّ الْآخِرَةِ فَكُلُّ شَيْءٍ خَتَمَهُ اللهُ بِالنَّارِ، وأخَّر عُقُوبَتَهُ إِلَىٰ الْآخِرَةِ. وَكَذَا قَالَ عِكْرِمَةُ، وقَتَادَةُ، وَالضَّحَّاكُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ﴾ أَيْ: رَحْمَتُهُ وَسِعَت كُلَّ شَيْءٍ، وَمَغْفِرَتُهُ تَسَعُ الذُّنُوبَ كُلَّهَا لِمَنْ تَابَ مِنْهَا، كَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣﴾ [الزُّمَر].

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، الملك الحق الكريم، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه، وسلم تسليما كثيرا.

أما بعد؛ ففي قول الله جل وعلا: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ۝٣١ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ

فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ ﴾.

هٰذه الآيات فيها مَسَائِلُ عَظِيمَة بَيَّنَهَا الله جل وعلا لِعِبَادِهِ، لِشِدَّةِ حاجتهم إليها.

فيها: بيانُ الْحِكْمَةِ من خلق السَّمٰوات.

وفيها: بَيَانُ عِظَمِ رَحْمَةِ الله جل وعلا الذينَ وَحَّدُوهُ وأَخْبَتُوا له، وعَبَدُوهُ وحده لا شريك له، وتبرؤوا من الشِّرْكِ وأهله.

وفيها: أن الله جل وعلا هو الذِّي يُزَكِّيٰ عباده، وأن العباد صِفَتُهُمُ الْمَعْصِيَةُ والْغَفْلَةُ والظُّلْمُ والْجَهْلُ، فلا يَنْبَغِي أن يُزَكُّوا أنفسهم، بل الله جل وعلا يُزَكِّيٰ من يشاء، هو سُبْحَانَهُ أعلم بمن اتَّقَىٰ.

وهٰذه الآيات مُنَاسَبَتُهَا جَهْلُ المشركين بالحكمة من خلق السَّمٰوات والأرض، حيث ظَنُّوا أن السموات والأرض ليس في خلقها حكمة، فضلًا عن أن يَعْلَمُوا أن هٰذه الحكمة هي مُجَازَاةُ الْمُسِيئِينَ من المشركين وأشباههم، وجزاء الْمُحْسِنِينَ بالمغفرة للذُّنُوبِ ودُخُولِ الْجَنَّةِ.

والسُّورَةَ مُشْتَمِلَةٌ -كما سمعتم- علىٰ تقرير المطالب العظيمة، تقرير التوحيد، والرسالة، ورَدِّ الشِّرْكِ، وبَيَانِ ما عليه المشركون من الزَّيْغِ العَظِيمِ في دِينِ الله، وغَفْلَتِهِمْ عن حكم الله جل وعلا في خلقه.

قوله سبحانه: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ اللام في قوله: ﴿ وَلِلَّهِ ﴾ هي لام الْمِلْكِ، يعني أن الله سبحانه يَمْلِكُ ما في السموات وما في الأرض.

واللام في القرآن تأتي علىٰ معانٍ، أهمها ثلاثة:

الأول: لام الْمِلْكِ.

الثاني: لام الاخْتِصَاصِ.

الثالث: لام الاسْتِحْقَاقِ.

أما لام الْمِلْكِ: فهي أن يكون الشَّيءُ الذي قَبْلَهَا لفظًا أو تقديرًا يناسب أن يكون مَمْلُوكًا كما في هٰذه الآية.

وأصلها في اللغة أن يقول القائل مثلًا: هٰذا الكتاب لي. يعني: أنه يَمْلُكُهُ لأنَّ الكتاب يَصْلُحُ أن يُتَمَلَّكَ.

أما لام الاختصاص: كقول القائل: السَّرْجُ لِلدَّابَّةِ. وأشباه ذلك، لأن الدَّابَّةَ لا تَصْلُحُ أن تُمْتَلَكَ، ولا

يَصْلُحُ السَّرْجُ أن يكون مِلْكًا لها، فتكون مختصة به، ويكون السَّرْجُ مختصًّا بهٰذه الدابة، والاختصاص له أغراض تراجع في كتب اللغة.

أمَّا لامُ الاسْتِحْقَاقِ: فضابطها الغالب أن يكون ما قبلها من المعاني العامة التي يستحقها ما بعدها، كقوله جل وعلا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فالحمد مَعْنىٰ، وإضافته إلىٰ الله جل وعلا باللام إضافة استحقاق، يَعْنِي: كلُّ أَنْوَاعِ الْمَحَامِدِ مستحقةٌ لله جل وعلا، أو كل أنواع المحامد وأجناسها استحقاق الله جل وعلا.

إذا تبين ذلك فقوله هنا: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ معناه: أنه سبحانه يَمْلِكُ ما في السَّمٰوات وما في الأرض، و(ما) في الموضعين تُفِيدُ العموم، أي: أن الذي في السَّمٰوات كله والذي في الأرض كله، وأيضًا ما بينهما هو مِلْك لله جل وعلا، يتصرف فيه كيف يشاء أولًا، ثم هو سبحانه يخلق الأشياء لِحِكْمَةٍ عَظِيمَةٍ.

قوله: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ جمع سماء، وهيٰ في اللغة: لِمَا عَلَا وارْتَفَعَ، فيقال لكل ما أَظَلَّ سَمَاءً لعُلُوِّهِ وارتفاعه، ولهٰذا سُمِّيَ السَّحَابُ سماء، وسُمِّيَ المطرُ سماءً، وسُمِّيَتِ الْقُبَّةُ الزَّرْقَاءُ فوق الأرض سماء، وسُمِّيَتِ السَّمَوات سموات لِعُلُوِّها وارتفاعها.

وفي القرآن جاءت السَّمٰوات مجموعة، ومفردة السماء، فإذا جُمِعَتْ فالْمَعْنِيُّ بها السبع سماوات المعروفة، ولا يَعْنِي بها العلو.

وإذا أُفْرِدَتْ وأُتِيَ بلفظ السماء فإنه قد يراد منها:

- جِنْسُ السَّمٰوات أو واحدة السَّمٰوات، أما الْجِنْسُ فيعني الجميع، أو واحدة السماء الدنيا، أو أحد السَّمٰوات السبع.
- وإما أن يُرَادَ بها الْعُلُوُّ.

أما الأول فَظَاهِرٌ، وأما الأَخِيرُ فكما في قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾ [إبراهيم] يعني في الْعُلُوِّ.

وكقوله جل وعلا: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك] يعني مِنَ الْعُلُوِّ. وفي الآية الأخيرة يحتمل أن يكون المرادُ بالسماء جِنْسَ السَّمٰوات فتكون (في) بمعنىٰ

عَلَىٰ.

فقوله تعالىٰ: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الأكثر أن ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ المراد بها في الظرفية، وقد تأتي ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بِمَعْنَىٰ: علىٰ السَّمٰوات. فتكون (في)، بمعنىٰ (عَلَىٰ). وقد تَحْتَمِلُ الْمَعْنَيَيْنِ، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأنعام] فقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يعني: علىٰ السَّمٰوات. وهي عقيدة السلف الصالح الْمَبْنِيَّةُ علىٰ الدَّلِيلِ من الْكِتَابِ والسُّنَّةِ.

قوله سبحانه: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ اللام التي تكون قبل الفعل غَيْر اللام التي سَبَقَ الكلام عليها، تلك اللَّامُ تَكُونُ قَبْلَ الأسماءِ لام الملك والاختصاص والاستحقاق.

أما اللام التي قبل الفعل لها أغراض كثيرة، منها: لام التعليل، أو لام كي كما يسميها بعض النُّحَاةِ.

وقوله: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ الْعِلَّةُ من كون السَّمٰوات والأرض يملكها الرَّحمٰن جل وعلا، الْعِلَّةُ من الخلق أنه سبحانه خلقهم لحكمة بالغة عظيمة.لماذا خَلَقَ؟ ولماذا أَخْبَرَ بملكه لذلك، وما يلزم عنه، وما ينشأ عنه؟

فالجواب والعلة: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ والجزاء: هو إعطاء نتيجة العمل، الْمُجَازَاةُ مقابلة العمل بِحَاصِلِهِ ونَتِيجَتِهِ، وهو أن يجْزىٰ من عَمِلَ خَيْرًا بالخير، وأن يجزىٰ من عَمِلَ شَرًّا بالشر، فيجزي تَصْدُقُ علىٰ الحسنات والسيئات، ولهٰذا قال هنا: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ بخلاف يُجَازِي، فإن الفعل يُجَازِي مُخْتَصٌّ بالكافر، كما قال سبحانه في سورة سبأ: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ [سبأ].

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟﴾ و﴿ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾ أساءوا وأَحْسَنُوا كلمتان متقابلتان، فالذين أساءوا هم الذين جاءوا بالسيئة، والذين أحسنوا هم الذين جاءوا بالحسنة، والسيئة والحسنة لهما اشتقاق ومعاني في القرآن لعلنا نذكرها في موضع آخر لأجل كثرة البحوث في هٰذه الآيات.

قوله: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ والباء في قوله: ﴿بِمَا عَمِلُوا۟﴾ هي بَاءُ الْمُقَابَلَةِ والعِوَضِ، لأن الله سبحانه لا يَظْلِمُ الناسَ شيئا.

وأما الْبَاءُ الثانية في قوله: ﴿وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ فهي باء التَّفَضُّلِ والإكرام، باء السبب، تَفَضُّلًا منه إكرامًا، لا مُعَاوَضَة، لأن الْعَبْدَ لو نُوقِشَ الحسابَ هَلَكَ.

والحسنىٰ جاءت في القرآن بعدة معان منها: أن المراد بالْحُسْنَىٰ جنس ما يَحْسُنُ من الخيرات، ويَنْفِي

الْمَضَارَّ والمكروهات، وجاءت بمعنىٰ الْجَنَّةِ كما في قوله: ﴿إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت:٥٠]، وكما في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، ولها معانىٰ أخرىٰ تأتي في موضعها إن شاء الله.

قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ هٰذا وصف للَّذِينَ أَحْسَنُوا، فكأن قائلًا قال: من هم الذين أَحْسَنُوا ؟ فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾.

وهنا قاعدة في التفسير نُنَبِّهُ عليها وهي: أنه يَكْثُرُ الإتيان بلفظ الذين كتعريف لما قبله، أو وصف، أو جواب سؤال.

وإذا كان كذلك، فإن الذين مع بعدها تكونُ تَفْسِيرًا لما قبلها، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ [الحديد]، فمن هُمْ أهلُ الاختيال والفخر؟ قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾.

هٰذه الآية ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ﴾ سمعت ما فيها من كلام السلف في التفسير، وما جاء فيها من الحديث والآثار، والآية اشْتَمَلَتْ علىٰ أن الذُّنُوبَ مُنْقَسِمَةٌ إلىٰ كبائر وصَغَائِر، وهٰذا هو الصحيح عند الْمُحَقِّقِينَ من أهل العلم، وعند جماهير علماء الأمة، والناس في انقسام الذنوب لهم مذاهب:

الأول: أن الذُّنُوبَ كُلَّهَا كبائر، وليس ثَمَّ ذَنْبٌ صَغِيرٌ، وإنما هناك كبير وأكبر. والذين قالوا بهٰذا القول نظروا إلىٰ أن المعصية إذا نُظِرَ فيها إلىٰ من عُصِي فإنها كبيرة، لأن الله جل وعلا يَسْتَحِقُّ الطاعة، ولا يَسُوغُ لأحد أن يَعْصِيَهُ، فمن عَصَاهُ فقد أتىٰ كَبِيرًا من الفعل أو من القول.

والقول الثاني: أن الذُّنُوبَ بالنسبة للمُوَحِّدِ صغائرٌ في جَنْبِ التَّوْحِيدِ، فحَسَنَةُ التوحيد أعظمُ الحسنات، وسيئة الشرك أكبر السيئات، والْمُوَحِّدُ تُغْفَرُ له الكبيرة، بمعنىٰ أنه يَخْرُجُ من النار، فالكبائر في حق غيرِ الْمُوَحِّدِ، وأما الْمُوَحِّدُ فلا كبيرة في حقه مآلًا. وهٰذا القول ظاهر القرآن يَرُدُّهُ، والله جل وعلا بَيَّنَ أن الذنوب تنقسم إلىٰ كبائر وإلىٰ ما دون ذلك.

والقول الأول أيضًا غَلَطٌ لأن القرآن والسُّنَّةَ تَرُدَّانِهِ.

والقول الثالث وهو الصحيح: أن الذُّنُوبَ مُنْقَسِمَةٌ إلىٰ كبائر وإلىٰ صغائر، والدليل علىٰ انقسامها أشياء منها:

الأول: أن الله جل وعلا قال: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾[النساء]، فَشَرَطَ لِتَكْفِيرِ السيئات اجْتِنَابَ الْكَبَائِرِ، فدل علىٰ أن الشرط يخالف المشروط، فدل علىٰ أن السيئات غيرُ الْكَبَائِرِ، وإذا كانت غيرها فهي صَغَائِرُ.

الثاني: قوله جل وعلا في هٰذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ قوله هنا: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ استثناء من الْإِثْمِ، لا استثناء من الْكَبَائِرِ كما سيأتي تحقيقه، وفي مفهوم قوله: ﴿كَبَـٰٓئِرَ﴾ في الآية دليل علىٰ أن ثَمَّ صَغَائر، لأنها وصف، ومفهوم المخالفة يكون مفهومَ صِفَةٍ كما هو مقرر في موضعه في الأصول.

وهٰذا القول وهو الصحيح دلت عليه أدلة كثيرةٌ من السُّنَّةِ أيضًا، كقوله عليه الصلاة والسلام: «الْصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ وَالْجُمُعَةُ إِلَىٰ الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَىٰ رَمَضَانَ مُكفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ مَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ»، ونحو ذلك من الأحاديث.

إذا تقرر ما ذكرنا من انقسام الذنوب إلىٰ كبائر وصغائر فأهل العلم اختلفوا حد الكبيرة ؛ ممن قال بأن الذنوب صغائر وكبائر، ما هي الكبيرة ؟

الصحيح منها هو: أن الكبيرة ما كان فيه تَوَعُّدٌ بِحَدٍّ في الدنيا، أو بعذاب في النار يوم القيامة، أو جاء معه لَعْنٌ لِفَاعِلِهِ، وزاد شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ علىٰ ذلك: أن يُنْفَىٰ عنه الإيمان، كقوله ﷺ: «لاَ يُؤْمِنُ من لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ»، ونحو ذلك، وزاد غيره قوله: لَيْسَ مِنَّا. بِنَفْيِهِ عن جماعة المؤمنين، وقد نظمها ابْنُ عَبْدِ الْقَوِيِّ في ألفيته في الآداب بقوله في ضابط الكبيرة:

فَمَا فِيهِ حَدٌّ فِي الدُّنَا أَوْ تَوَعُّدُ ... بِأُخْرَىٰ فَسَمِّ كُبْرَىٰ عَلَىٰ نَصِّ أَحْمَدِ
وَزَادَ حَفِيدُ الْمَجْدِ أَوْ جَا وَعِيدُهُ ... بِنَفْيِ لِإِيمَانٍ وَلَعْنٍ لِمُبْعِدِ

وحفيد الْمَجْدِ هو: شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ.

فهٰذا هو الصحيح أن الكبيرة تُحَدُّ بِمَا فِيهِ حَدٌّ في الدنيا، أو عذاب بالنَّارِ في الآخرة، أو نَفْيٌ للإيمان، أو لَعْنٌ لفاعل تلك المعصية.

المسألة الثانية: دَرَجَ العلماء علىٰ ذكر قول بعض السلف: إنه لا صغيرة مع إصرار، كما أنه لا كبيرة مع استغفار، وأن الْإِصْرَارَ علىٰ الصغيرة يصيرها كبيرة.

وهٰذا الْحَدُّ فيه نَظَرٌ من جِهَةِ الدَّلِيلِ، لأن الأدلة دلت علىٰ أن العبد إذا عاود الذَّنْبَ فإنه يُغْفَرُ له، ولكن لو صارَ الذنبُ كبيرةً فإن مغفرته إنما تكون بالتوبة.

فالأدلة جاءت علىٰ أن الصَّلَاةَ تُكَفِّرُ، والوضوء يُكَفِّرُ، والعُمْرَةَ تُكَفِّرُ، والحج يُكَفِّرُ، وهٰذا يدل علىٰ أن فِعْلَ الصَّغَائِرَ لا يُصَيِّرُهَا كبيرة.

قال بعض العلماء: إن مأخذ من قال ذلك من السَّلَفِ إذا صاحب فِعْل الصَّغِيرَةِ والْمُدَاوَمَةِ عليها استهانة بها، وعدم طَمَعٍ في الْمَغْفِرَةِ، ولا مبالاة بالسيئة، وإذا كان كذلك فهٰذا مُتَّجَهٌ، فتكون الكبيرة في مجموع أمرين في الْإِصْرَارِ علىٰ الصغائر، وعدم الْمُبَالَاةِ بها، أمَّا لو كان مُصِرًّا ويَسْتَغْفِرُ فإنه لا يَحْسُنُ أن تدخل في حد الكبيرة.

الواو في قوله جل وعلا: ﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ للمغايرة، فإن الآثام الكبيرة منها ما هو فاحشة من حيث الوصف، يَفْحُشُ عند الْجَمِيعِ من ذَوِي الفِطَرِ مثل: الزِّنَىٰ، والسَّرِقَةِ، والقَذْفِ، وأشباه ذلك، يَفحُشُ علىٰ النفوس السليمة ذلك، ومنها ما هو كبيرة، وقد لا يَفْحُشُ مثل شُرْبِ الْخَمْرِ، والتَّوَلِّي يوم الزَّحْفِ، وأشباه ذلك.

إن الكبائرَ من جِهَةِ الوَصْفِ عند أهل الإيمان كلها فاحشة، وكُلُّهَا فواحش، لكن من جهة فعل الناس لها فإن منها ما يُعَدُّ فاحشة، ومنه ما هو كبيرة ولا يظهر عند العامة أنه فاحش من الفعل، لذلك عَطَفَ بالواو المقتضية للمغايرة بقوله: ﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾.

قوله سبحانه: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ الاستثناء هنا كما قال الحافظ ابن كثير له تفسيران: إما أن يكون استثناء منقطعًا، وإما أن يكون مُتَّصِلًا.

القول الأول: من قال إنه استثناء متصل جعل اللَّمَمَ هو فعل الكبيرة. كما سمعت، ونُسِبَ للصحابة: هو الرجل يَزْنِي ثم يَعُودُ، يَسْرِقُ ثم يعود، يَشْرَبُ الْخَمْرَ ثم يعود. وهٰذا مَصِيرٌ منهم إلىٰ أن الاستثناء متصل، يعني: أن اللَّمَمَ داخل في الكبائر، لكنه زاد عليها بوصف الْقَوَدِ والرَّجْعَةِ والتَّوْبَةِ، فيكون اللمم هو من فعل كبيرة، ولم يَقُمْ عليها، بل استغفر وعاد.

والقول الثاني: أن الاستثناء هنا مُنْقَطِعٌ فتكون (لا) بمعنىٰ (لٰكِن)، الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش لكن اللمم، يعني: لكن من فَعَلَ اللَّمَمَ إن ربك واسع المغفرة، وهٰذا القول أظهرُ، وهو أنَّ اللَّمَمَ لا تَدْخُلُ في الكبائر، بل هي الصغائر كما ذكر في أول التفسير، وقدَّمَهُ ابن كثير، وهو الراجح عند أهل العلم أن اللمم ليست هي الكبائر، بل اللَّمَمُ هو ما لا يخلو أن يُلِمَّ به المرءُ في يَوْمِهِ ولَيْلَتِهِ من نَظْرَةٍ،

أو من نوع سُوءِ ظَنٍّ، أو أشباه ذلك مما فيه معصية.

لا شك أن العبد المؤمن مخاطب في كل حال، بأمرٍ ونَهْي، فإن خالف الأمر فقد أَلَمَّ بشيء، وإن أتىٰ النَّهْي فقد أَلَمَّ بشيء، فكلما ازداد عِلْمُ العبد ازداد خَوْفُهُ، وازدادت مَعْرِفَتُهُ وعُلْمُهُ أنَّه أَشَدُّ حَاجَةٍ للاستغفارِ، ولِمَغْفِرَةِ الله جل وعلا، وتَوْبَتِهِ علىٰ عبده.

فالصحيح أن اللَّمَمَ: اسم لما يُلِمُّ به المرء في يومه وليلته من مخالفة لأمرٍ أو ارتكابٍ لنَهْي مما لا يدخل في حد الكبيرة، ولهٰذا قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾.

قوله سبحانه: ﴿وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ ما سَبَبُ ذِكْرِ السَّعَةِ هنا مع اللَّمَمِ ؟ مع أن الذي يَتَبَادَرُ أن سعة المغفرة تكون لِذِكْرِ الكبائر، لأن الكبيرة هي العظيمة فتكون مغفرتُهَا واسعة لِعِظَمِهَا، لكن ذِكْرُ سِعَةِ المغفرة بعد اللَّمَمِ لكثرة وسِعَةِ أسباب مغفرة الصغائر في الشريعة الغراء، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾.

كيف تكون سَعَةُ مغفرة الصغائر، وبأي شيء ؟

بإقامته جل وعلا الأسبابَ الكثيرة في تَكْفِيرِ الصغائر، وإن تكفير السيئات الصغائر له شروط:

الشرط الأول: أن تُجْتَنَبَ الْكَبِيرَةُ كما قال جل وعلا: ﴿ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾ ﴾[النساء].

الشرط الثاني: أن يأتِيَ بِمُكَفِّرٍ مما جاء في الشريعة أنه يُكَفِّرُ الذنوب مثل: الوضوء، والصلاة، والصيام، وقيام ليلة القدر، وقيام رمضان، والعمرة، والحج، صلاة ركعتين بعد الذنب، وأشباه ذلك.

لكن هٰذه المكفرات كلها جاءت مشروطةً أيضًا، فهو شَرْطٌ داخلُ الشرط، وذلك أنه ليست كل صلاة تُكَفِّرُ، وليس كُلُّ وُضُوءٍ يُكفِّرُ، وليس كل صِيَامٍ يُكفِّرُ، وليس كل قيام يُكفر، وليستْ كُلُّ عمرةٍ تُكفِّرُ، وهكذا.

إن الأدلة من السُّنَّةِ التي جاء فيها ذِكْرُ تَكْفِيرِ الصغائر بهٰذه الأسباب جاءت مشروطة، ففي الوضوء قال عليه الصلاة والسلام: « مَنْ تَوَضَّأَ كَمَا أُمِرَ » فجاء شرط كما أمره الله بعد الوضوء، وقال في الصلاة: « مَا مِنَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ تَحْضُرُهُ صَلَاةٌ مَكْتُوبَةٌ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهَا وَخُشُوعَهَا وَرُكُوعَهَا، إِلَّا كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا مِنَ الذُّنُوبِ مَا لَمْ يُؤْتِ كَبِيرَةً وَذَلِكَ الدَّهْرَ كُلَّهُ» رواه مسلم في «الصحيح»، فإتْمَامِ الركوع والسجود والخشوع شرط.

وقال عليه الصلاة والسلام في صيام رمضان: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ، إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»، وقال في القيام: « مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ» وقال في الحج: «مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ كَمَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ» وهكذا.

فهٰذه الأدلة تُبَيِّنُ سِعَةَ أَبْوَابِ الْمَغْفِرَةِ، فَقَدْ يفعلُ الْعَبْدُ صغيرة بين الصلاة إلىٰ الصلاة، وتكون صلاته قد ذَهَبَ خُشُوعُهَا فلم يُتِمَّ ركوعها، أو سجودها، أو خشوعها، فوَسَّعَ الله جل وعلا علىٰ العبد أسباب المغفرة، فجعل رمضان إلىٰ رمضان مُكَفِّرَاتٍ ما تهيأ له ذلك، جعل العمرة إذا فَعَلَهَا فَلَمْ يَرْفُثْ ولَمْ يَفْسُقْ مُكَفِّرَةً، جعل الْحَجَّ إلىٰ الْحَجِّ يكفر الذنوب.

وهٰذا جواب سؤال أَشْكَلَ علىٰ كَثِيرٍ من أهل العلم، وهو أنه: كيف صَارَ رمضان إلىٰ رمضان مُكَفِّرًا، مع أن الصلاة إلىٰ الصلاة مُكْفِّرَةٌ، فإنه إذا أتىٰ رمضان مع الصلوات الخمس سيأتي ولا ذَنْبَ صغيرًا، فإذا أتىٰ الْحَجَّ فسيأتي ولا ذَنْبَ صَغِيرًا، لأن ما قبله يُكَفِّرُ، فالصلوات تُكَفِّرُ، ورمضان يُكَفِّرُ، فغَلِطُوا من هٰذه الجهة، فجعلوا الحج مُكَفِّرًا للكبائر، لأنهم قالوا: إنه سيأتي ولا ذنب، فكيف يَخْرَجُ من ذنبه إذن ؟

والجواب عن هٰذا الإشكال، أن المسألة في سَعَةِ أَسْبَابِ المغفرة، وكُلُّ سَبَبٍ مشروط كلا سَبَبٍ كما جاء في الأدلة، والحمد لله علىٰ سِعَةِ مَغْفِرَتِهِ وله الثناء الحسن، ونَشْكُرُهُ سبحانه، ونُثْنِي عليه الخير كله، فهو سبحانه الذي مَنَّ علينا بالهداية، ومنَّ عَلَيْنَا بِسعَةِ المغفرة، وسعَةِ أسبابها، فله الحمد في الأولىٰ والأخرىٰ ﷻ.

المغفرة لُغَةً: مَأْخُوذَةٌ من الْغَفْرِ وهو: السِّتْرُ، غَفَرَ الشَّيْءَ إذا سَتَرَهُ، ولهٰذا سُمِّيَ الْمِغفَرُ الذي يُلْبَسُ في الحرب علىٰ الرأس مِغْفَرًا لأنه يَسْتُرُ الرأس من أثر وقع السيوف.

والمغفرة شرعا: اسم لشَيْئَيْنِ: الأول: لِسَتْرِ الذَّنْبِ، والثاني: لمحو أثره.

فستر الذنب يشمل شيئين:

الأول: أن لا يَفْضَحَ الْعَبْدُ.

والثاني: أن يُمْحَىٰ من صَحِيفَتِهِ.

ومحو أثره يشمل شيئين أيضًا:

الأول: مَحْوُ أَثَرِهِ في الدنيا بعقوبته في الدنيا.

الثاني: مَحْوُ أَثَرِهِ في الآخرة بعقوبته في الآخرة.

وكل من هٰذه الأشياء الأربعة لها أسباب خاصة بها، والمقام يطول بذكرها نرجئها إلىٰ موضع تذكر فيه المغفرة، بإذنه تعالىٰ وبمشيئته وإعانته وتوفيقه.

سؤال: هل اجتناب الكبائر مُكَفِّرٌ للذنوب ؟

الجواب: قال تعالىٰ: ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾[النساء]، بعض العلماء فَهِمَ من آية سورة النساء هٰذه أن الصغيرة تُكَفَّرُ بِمُجَرَّدِ اجتناب الكبائر، وهٰذا فيه نظر، لأن الآية ذكرت أن الله يُكفِّرُ قال: ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ فذكر أنه يُكفِّرُ، وهٰذا التكفير ليس بسبب الاجتناب فقط، فإن الآية لم تدل عليه، وإنما دَلَّتِ السُّنَّةُ علىٰ أن تَكْفِيرَ الكبائر يكون بأسباب أُخْرَىٰ، فالأدلة لا تدل لمن قال: إن اجتناب الكبائر تُكفَّرُ به الصغائر، وإنما تدل علىٰ أن اجتناب الكبائر يُكَفِّرُ الله به جل وعلا الصغائر.

لكن ما الأسباب التي تكفر الذنوب مع اجتناب الكبائر ؟ الأسباب هي ما ذُكِرَتْ في الأحاديث، فكون الصلاة إلىٰ الصلاة مُكَفِّرَاتٌ لما بينها ما اجتنبت الكبائر، والوضوء معه تَحَاتُّ الخطايا، ونحو ذلك، هٰذا كله بشرط اجتناب الكبائر، فقوله تعالىٰ: ﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ معناه: بما شَرَعْنَا من الأسباب التي تُكَفِّرُ السيئات.

سؤال: هل الوضوء الذي جاء في الحديث: « هَلْ يَبْقَىٰ مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ ؟ » مُكَفِّرٌ للكبائر ؟

الجواب: هٰذا مَبْنِيٌّ علىٰ فهم معنىٰ الدَّرَنِ فالنبي ﷺ قال: «هَلْ يَبْقَىٰ مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؟» ثم قال: «فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، يَمْحُو اللهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا» فهل يقال: إن الكبيرة تُسَمَّىٰ دَرَنًا، فهٰذا ليس بظاهر، فإن الكبائر أعظمُ من الأوساخِ التي هي الأَدْرَانُ التي تَعْلَقُ بالإنسان، فالظاهر من الحديث من حيث اللغة تَعْلِيقُهُ بالأدران، وهي: ما يَتَّسِخُ به المرءُ ويُلِمُّ به من صغائر الذنوب.

أما من جِهَةِ الاستدلال الآخَرِ فاجتماع الأحاديث يَدُلُّ علىٰ أنها لا تُكَفِّرُ كلَّ شَيءٍ، هناك من قال: إن الْحَجَّ يُكَفِّرُ كُلَّ شيء، وإن الصَّلَاةَ تُكَفِّرُ كُلَّ شيءٍ لِلْمُوَحِّدِ حتىٰ الكبائر، وهو مذهب لبعض الفقهاء، ولكن هٰذا ليس بصحيح لمخالفته لظاهر آية النساء.

س: ما تفسير الإحسان ؟ وهل الإخلاص في العبادة يجمع الإحسان ؟

ج: الإحسان هو: إخلاص العبادة، ومُتَابَعَةُ السُّنَّةِ، وهو ينشأ من أن تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ فإن لم تكن

تَرَاهُ فإنه يراك، يعني ينشأ كَمَالُه، فتقييدها بالإحسان أو أنه يجمعها الإحسان ليس بوجيه، لأن الإحسان درجات ليس درجة واحدة.

سؤال: كيف تُكَفَّرُ الكبائر ؟

الجواب: تكفير الكبائر يكون بالمغفرة والتوبة، وبأسباب أخرى، إذا فعل العبد المعصية فإن تكفيرها يكون بأسبابٍ عشرة دَلَّتْ عليها النصوص، منها أشياء من العبد، ومنها أشياء من غيره، من إِخْوَانِه، ومن الملائكة، ومنها ما هو من الله جل وعلا.

فما هو من العبد: فعل الْحَسَنَاتِ الْمَاحِيَةِ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ﴾ [هود:١١٤]، واسْتِغْفَارُ العبد وتَوْبَتُهُ، الاستغفار شيء والتوبة التي هي النَّدَمُ والْإِقْلَاعُ والعَزْمُ شيء آخر.

ومنها أسباب من العباد، ومنها أسباب من الله جل وعلا، مثل الْمَصَائِب في الدنيا والْأَهْوَال في الْبَرْزَخِ، وما يَجْرِي في عَرَصَاتِ القيامةِ.

الدرس الثامن

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ أَيْ: رَحْمَتُهُ وَسِعَت كُلَّ شَيْءٍ، وَمَغْفِرَتُهُ تَسَعُ الذُّنُوبَ كُلَّهَا لِمَنْ تَابَ مِنْهَا، كَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزُّمَر].

وَقَوْلُهُ: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾ أَيْ: هُوَ بَصِيرٌ بِكُمْ، عَلِيمٌ بِأَحْوَالِكُمْ وَأَفْعَالِكُمْ وَأَقْوَالِكُمُ الَّتِي تَصْدُرُ عَنْكُمْ وَتَقَعُ مِنْكُمْ، حِينَ أَنْشَأَ أَبَاكُمْ آدَمَ مِنَ الْأَرْضِ، وَاسْتَخْرَجَ ذُرِّيَّتَهُ مِنْ صُلْبِهِ أَمْثَالَ الذَّر، ثُمَّ قَسَمَهُمْ فَرِيقَيْنِ: فَرِيقًا لِلْجَنَّةِ وَفَرِيقًا لِلسَّعِيرِ. وَكَذَا قَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ قَدْ كَتَبَ الْمَلَكُ الَّذِي يُوَكَّل بِهِ رزقه وأجله وَعَمَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ.

قَالَ مَكْحُولٌ: كُنَّا أَجِنَّةً فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِنَا، فَسَقَطَ مِنَّا مَنْ سَقَطَ، وَكُنَّا فِيمَنْ بَقِيَ، ثُمَّ كُنَّا مَرَاضِعَ فَهَلَكَ مِنَّا مَنْ هَلَكَ. وَكُنَّا فِيمَنْ بَقِيَ ثُمَّ صِرْنَا يَفَعَةً، فَهَلَكَ مِنَّا مَنْ هَلَكَ. وَكُنَّا فِيمَنْ بَقِيَ ثُمَّ صِرْنَا شَبَابًا فَهَلَكَ مِنَّا مَنْ هَلَكَ. وَكُنَّا فِيمَنْ بَقِيَ، ثُمَّ صِرْنَا شُيُوخًا -لَا أَبَا لَكَ- فَمَاذَا بَعْدَ هٰذا نَنْتَظِرُ؟ رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾ أَيْ: تَمْدَحُوهَا وَتَشْكُرُوهَا وَتُثْنُوا بِأَعْمَالِكُمْ، ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴿٣٢﴾﴾، كَمَا قَالَ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ [النِّسَاء].

وَقَالَ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»: حَدَّثَنَا عَمْرو النَّاقِدُ، حَدَّثَنَا هَاشِمُ بْنُ الْقَاسِمِ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ يزيد بْنِ أَبِي حَبِيبٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَطَاءٍ قَالَ: سَمَّيْتُ ابْنَتِي بَرّة، فَقَالَتْ لِي زَيْنَبُ بِنْتُ أَبِي سَلَمَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَهَىٰ عَنْ هٰذا الِاسْمِ، وَسُمِّيتُ بَرَّة، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ، إِنَّ اللهَ أَعْلَمُ بِأَهْلِ الْبِرِّ مِنْكُمْ». فَقَالُوا: بِمَ نُسَمِّيهَا؟ قَالَ: «سَمُّوهَا زَيْنَبَ».

وَقَدْ ثَبَتَ أَيْضًا فِي الْحَدِيثُ الذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ حَيْثُ قَالَ: حَدَّثَنَا عَفَّانُ، حَدَّثَنَا وُهَيْبٌ، حَدَّثَنَا خَالِدٍ الحَذَّاء، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بكْرَة، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: مَدَحَ رَجُلٌ رَجُلًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَيْلَكَ! قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ -مِرَارًا- إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ مَادِحًا صَاحِبَهُ لَا مَحَالَةَ فَلْيَقُلْ: أَحْسَبُ فُلَانًا -وَاللهُ حَسِيبُهُ، وَلَا أُزَكِّي عَلَىٰ اللهِ أَحَدًا- أَحْسَبُهُ كَذَا وَكَذَا، إِنْ كَانَ يَعْلَمُ ذَلِكَ».

ثُمَّ رَوَاهُ عَنْ غُنْدَر، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ خَالِدٍ الْحَذَّاءِ، بِهِ. وَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، وَمُسْلِمٌ، وَأَبُو دَاوُدَ، وَابْنُ مَاجَهْ، مِنْ طُرُقٍ، عَنْ خَالِدٍ الْحَذَّاءِ، بِهِ.

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا وَكِيع، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ قَالَا حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ هَمَّامِ بْنِ الْحَارِثِ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ عُثْمَانَ فَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ فِي وَجْهِهِ، قَالَ: فَجَعَلَ الْمِقْدَادُ بْنُ الْأَسْوَدِ يَحْثُو فِي وَجْهِهِ التُّرَابَ وَيَقُولُ: أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا لَقِينَا الْمَدَّاحِينَ أَنْ نَحْثُوَ فِي وُجُوهِهِمُ التُّرَابَ.

وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ مِنْ حَدِيثِ الثَّوْرِيِّ، عَنْ مَنْصُورٍ، بِهِ.

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

الحمد لله، ،اشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا..

أما بعد؛ فأسأل الله جل وعلا أن يجعلنا وإياكم من أهل العلم النافع، وممن إذا تعلم عمل ، وممن إذا عمل اتبع السنة، إنه سبحانه جواد كريم.

ثم هٰذه الآية وهي قوله تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ ﴾ دَلَّت علىٰ أن الْعَبْدَ وإن كان عالمًا بنفسه فيما يحصل منه من كَبِيرِ الذنوب وصغيرها، فإن الله جل وعلا أَعْلَمُ مِنْهُ بنفسه وبأحواله، وكيف نشأه في الرَّحِمِ، بل وكيف نشأ أباه آدم من الأرض، حتىٰ أَصْبَحَ بَشَرًا سَوِيًّا، وهٰذا يدل علىٰ أن العبدَ قَدْ يَفُوتُهُ أشياء مما يعمل من الذُّنُوبِ، وعِلْمُ الله جل وعلا نَافِذٌ فيه يَعْلَمُ سبحانه أحوالَهُ كلها، وقد يَفْعَلُ الْعَبْدُ بَعْضَ الذُّنُوبِ، وهو غافل عنها، ثم لا يذكرها، ولهٰذا كان من الواجبات أن يَتُوبَ العبدُ تَوْبَةً عامة من الذنوب جميعها، ما يَعْلَمُهَا وما لا يَعْلَمُهَا.

ففي هٰذه الآية بَيان أن علم الله ﷻ كَامِلٌ فيما يفعله العبد، وفي كل شيء، فالله سبحانه بكل شيء عليم قال تعالىٰ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [الأحزاب]، ولهٰذا فالتوبة والمغفرة تُطْلَبُ مما يَذْكُرُهُ العبد، ومما لا يذكره من الذنوب، صِغِيرِهَا وكَبِيرِهَا، وكما جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال: « اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا نَعْلَمُهُ، وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا نَعْلَمُ ».

وقوله ﷻ هنا: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ هٰذا وجه تعلقها بما قبلها من أول الآية، ﴿إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ ومعلوم أن الإنشاء من الأرض إنما هو لأصل الإنسان وهو آدم عليه السلام، وأما بَنُوهُ فكان إنشاؤهم من الأرض بحكم الدِّلَالَةِ وحُكْمِ التَّبَعِيَةِ.

أما الدلالة فإن الإنسان مَخْلُوقٌ مُرَكَّبٌ من مُكَوِّنَاتٍ راجِعَةٍ إلىٰ الأرض من أنواع المعادن ومن الماء وأشباه ذلك، ولهٰذا إذا مات تَحَلَّلَ في الأرض، ورجع لِمُشَابِهِهِ، لأن تَكْوِينَهُ من هٰذه الأرض.

أَمَّا بحكم التَّبَعِ فلأن أبا الإنسان آدم عليه السلام خُلِقَ من الأرض، من الطين أصالة، وبَنُوهُ لهم حُكْمُهُ، قال جل وعلا: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾، والإنشاء هو الابتداء، يعني إذ ابتدأ خلقكم من الأرض، وقوله سبحانه: ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ يعني هٰذه الأرض بجميع ما فيها، فجُعِلَ في آدم عليه السلام من أَجْنَاسِ الأرض، فإنه كما جاء في الحديث الصحيح: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَىٰ قَدْرِ الْأَرْضِ: جَاءَ مِنْهُمُ الْأَحْمَرُ، وَالْأَبْيَضُ، وَالْأَسْوَدُ، وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالسَّهْلُ، وَالْحَزْنُ، وَالْخَبِيثُ، وَالطَّيِّبُ» فخُلِقَ منها آدم عليه السلام.

فقوله تعالىٰ: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ يعني بجميع أجناسها، لأن آدَمَ خُلِقَ من مُتَفَرِّقَاتِهَا.

قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ يعني: أنَّ عِلْمَ الإنسانِ لا يصل إلىٰ كَيْفِيَّةِ خَلْقِ آدم علىٰ وجه التفصيل، وإنشائه من الأرض، وكذلك لا يَعْلَمُ الإنسان عن نفسه وهو في بطن أمه، وكذلك لا يَعْلَمُ عن ولده ولا عن أَحْبَابِهِ، إذ كانوا أَجِنَّةً في بُطُونِ الأمهات، وهٰذا يقضي بأن علم الإنسان بِنَفْسِهِ قاصر، وأنَّ عِلْمَ الإنسان بنفسه غيرُ تَامٍّ، فإذا كان كذلك وجب أن يكون العبد مُخْبِتًا لله جل وعلا، خائفًا من عِلْمِ اللهِ جل وعلا فيه، لهٰذا قال سبحانه بعدها: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذْ أَنتُمْ﴾ (إذ) هنا بمعنىٰ: حين، أي: وحين أنتم أجنة في بطون أمهاتكم.

والْأَجِنَّةُ جَمْعُ جَنِين، والْجَنِينُ سُمِّيَ جَنِينًا لأنه مُسْتَتِرٌ في بَطْنِ الأم، لأن هٰذه المادة مادة الاجتنان جنَّ يَجِنُّ وما يتصرف من ذلك مَأْخُوذَةٌ من السِّتْرِ، ولهٰذا سُمِّيَ الْجَنِينُ جَنِينًا، وسُمِّيَ الْجُنُونُ جُنُونًا لما فيهم من سَتْرِ الْعَقْلِ وتَغْطِيَتِهِ، ونحو ذلك.

وبهٰذه المناسبة نذكر فائدة في اللغة وهي: أن تَفْسِيرَ الكلمات لا يكون علىٰ وجه الترادف، فإننا نقول: الجنون هو ما فيه استتار، أو ما فيه خَفَاءٌ، أو نَقُول: ما فيه سَتْرٌ وتَغْطِيَةٌ، ونقول كذلك في المغفرة: إن غُفْرَانَهُ ما فيها سَتْرٌ أيضًا. ونقول في كَفَرَ: الْكُفْرُ هو السَّتْرُ والتَّغْطِيَةُ، ومعلوم أن هٰذا تقريب، وإلا فَكُلُّ مادة من هٰذه المواد تَخْتَصُّ بأشياء.

فإذا قلنا: إن مَعْنَىٰ الْكُفْرِ السَّتْرُ والتَّغْطِيَةُ، ومعنىٰ الغَفْر أيضًا السَّتْرُ والتَغطية، وقلنا: معنىٰ الجنون ما

فيه سِتْرٌ وخَفَاءٌ، وأشباه ذلك، فهٰذا من جهة التَّقْرِيبِ لإيضاحِ المعنىٰ، وإلا فلا تَرَادُفَ كما هو معلوم، فغفر مادة، وجنَّ مادة، وستر مادة، وكفر مادة، وكل مادة منها لها ما يَخُصُّهَا، فاللغة ليس فيها ترادف تَامٌّ علىٰ الصحيح، وإنما أقسامُ الكلام مختلفة ما بين تَخَالُفٍ وتَوَافُقٍ وتَوَاطُؤ واشتراك.

قوله ﷻ: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ٣٢﴾ تَزْكِيَةُ النَّفْسِ في هٰذه الآية، ومثلها آية سورة النساء: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ [النساء:٤٩] لها تفسيران:

الأول: أن يُزَكِّيَ المؤمنون بعضهم بعضًا، يعني: أن يَصِفَ المؤمنونَ بَعْضَهُمْ بَعْضًا بأوصاف التَّزْكِيَةِ، فيصف المرء أخاه بأوصاف التزكية، أو يُزَكِّيهِ، أو يُسَمِّي الأب ولده باسمٍ فيه تَزْكِيَةٌ ونحو ذلك، مثاله: تَغْيِيرُ النبي عليه الصلاة والسلام اسم بَرَّةَ، وهٰذا من تزكية النَّفْسِ، ولكنه تزكية للأنفس داخل في قوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ يعني: لا يكن بَيْنَكُم أن يُزَكِّيَ بعضكم بعضًا في الإيمان وأشباه ذلك.

والتفسير الثاني: أن لا يُزَكِّيَ المرء نفسه. وإذا قيل في المعنىٰ الأول: إن المرء قد يكون غيرَ عالمٍ بما عند إخوانه، غيرَ عالم بحقيقة أحوالهم، فكذلك هو غَيْرُ عالم بنفسه، وهل يُقبَلُ عَمَلُهُ أم لا يُقْبَلُ؟، هل قُبِلَ ما تَقَرَّبَ إلىٰ الله به أم لم يُقْبَلْ؟، هل ما عَمِلَهَ كان صَالِحًا أم غيرَ صالح؟

إن تَزْكِيَةَ المرءِ نفسه مَذْمُومَةٌ داخلةٌ في عموم الآية، فليست الآية في تزكية المؤمنين بعضهم بعضا، أو ما أشبه ذلك، كما قد يظهر من كلام الحافظ ابن كثير؛ بل يدخل فيها من باب أَوْلَىٰ؛ بل من دلالة المعنىٰ أن يُثْنِيَ المرءُ علىٰ نفسه، وأن يُزَكِّيَ نفسه، إما بالأوصاف أو بالأعمال، أو أن يُقِرَّ ذلك، ولهٰذا كان أبو بكر رضي الله عنه إذا أُثْنِيَ عليه، كان يقول عَلَنًا: (اللهُمَّ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا يَقُولُونَ، وَاغْفِرْ لِي مَا لَا يَعْلَمُونَ، وَاجْعَلْنِي خَيْرًا مِمَّا يَظُنُّونَ) وهو مَرْوِيٌّ بالإسناد الصحيح عنه عند الإمام أحمد في كتابه الزهد، وعند غيره.

إن سَبَبَ نُزُولِ آية النساء في هٰذا المعنىٰ أن اليهود كانوا يقولون: نحن أبناء الله وأَحِبَّاؤهُ. ويقولون: ما عَمِلْنَا بالنهار يَغْفِرُهُ الله جل وعلا بالليل، وما عَمِلْنَاهُ بالليل يغفره الله بالنهار. ويقولون: إِنَّ أَبْنَاءَنَا سَيَشْفَعُونَ لَنَا وَيُزَكُّونَنَا.

إذا تبين ذلك، فإن تَزْكِيَةَ المرءِ نَفْسَهُ أو لغيره منهي عنها، وهٰذا علىٰ وجه العموم، إلا فيما يُحْتَاجُ فيه إلىٰ التَّزْكِيَةِ، فإذا احتاج إلىٰ التزكية حاجةً شَرْعِيَّةً فإنه يُزَكِّي من يَعْلَمُ، ولا يجوز أن يُزَكِّيَ المرءُ من لا

يَعْلَمُ حاله، وهٰذا مع الأسف انتشر في هٰذا الزمن حتىٰ بين طلبة العلم، فيزكي المرءُ الآخرَ، وهو لا يعلم حاله، بناء علىٰ ظَاهِرِ أمره، يُسَمِّيهَا تزكية، ربما كتب له في هٰذا، وربما أَثنىٰ وأَثْنَىٰ عليه، وإذا دُقِّقَ في الأمر إذ هو لا يَعْرِفُهُ معرفةً جيدة.

[فقد شَهِدَ رَجُلٌ عِنْدَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِشَهَادَةٍ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَسْتُ أَعْرِفُكَ، وَلَا يَضُرُّكَ أَنْ لَا أَعْرِفَكَ، ائْتِ بِمَنْ يَعْرِفُكَ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أَنَا أَعْرِفُهُ. قَالَ عمر: بِأَيِّ شَيْءٍ تَعْرِفُهُ ؟ قَالَ: بِالْعَدَالَةِ وَالْفَضْلِ. فَقَالَ عمر: فَهُوَ جَارُكَ الْأَدْنَىٰ الَّذِي تَعْرِفُ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ، وَمَدْخَلَهُ وَمَخْرَجَهُ ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: فَمُعَامِلُكَ بِالدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ اللَّذَيْنِ بِهِمَا يُسْتَدَلُّ عَلَىٰ الْوَرَعِ ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: فَرَفِيقُكَ فِي السَّفَرِ الَّذِي يُسْتَدَلُّ عَلَىٰ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: لَسْتَ تَعْرِفُهُ. ثُمَّ قَالَ لِلرَّجُلِ: ائْتِ بِمَنْ يَعْرِفُكَ.]

معناه أن التَّسَارُعَ في التزكية وثناء الناس بعضهم علىٰ بعض دون بَيِّنَةٍ، ودون برهان، ودون معرفة لا يجوز، لأن الله جل وعلا نَهَىٰ عن تَزْكِيَةِ النَّفْسِ، فلا ينبغي أن يُزَكِّيَ المرء أحدًا إلا لحاجة شرعية، ولمن يعرف أَنَّهُ مُسْتَحِقٌّ لذلك، فكيف بمن يكتب لمن لا يعرف، وكثير ما يأتينا بعض الطلبة يقول: أنا أريد تزكية، أريد تعريف للجهة الفلانية، ونحن لا نعرفه، وكأن الأمرَ صَارَ سَائِغًا بأنه تكتب لمن تعرف ولمن لا تعرف، وهٰذا مخالف لمقتضىٰ النَّهْيِ عن تزكية النفس، فلا يجوز لأحد أن يُزَكِّيَ أو أن يُعرِّف إلا من عَرَفَهُ، ويكون فيما كتب شاهدًا أن هٰذا الذي كتبه في وصفه لفلان أنه صحيح.

إن باب التزكية ليس بابَ مجاملات، ولا باب تعاطف، وإنما هو بابُ شَهَادَةٍ، فالمرء لا يجوز له أن يشهد بالزور، أو أن يشهد بما لا يعرف، إنما يشهد بما علم.

قال ﷻ: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ٣٢﴾ مجيء كلمة ﴿هُوَ﴾ هنا دون الاسم الظاهر في الآية ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ٣٢﴾، فالعدول عن الاسم الظاهر إلىٰ الضمير فيه فائدة بلاغية، وهي: إعطاء الْهَيْبَةِ والاهتمام لهٰذا الذي يذكر، لأن العدول من الظاهر إلىٰ الْمُضْمَرِ أو العكس له فوائد بلاغية ينبغي الاعتناء بها لكثرة ورودها في التفسير.

قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ٣٢﴾ معناه: هو أعلم منكم بمن اتقىٰ منكم ممن لم يَتَّقِ، والثناء إنما هو علىٰ الْمُتَّقِينَ، وذلك يوجب علىٰ المرء أن لا يُزَكِّيَ نفسه، وأن لا يزكي غيره.

سؤال: [حينما أُسْأَلُ عن فُلَانٍ فأقول فيه: هو صالح، هو علىٰ دِينٍ، هل هٰذه تزكية؟]

الجواب: لا، هٰذا ليست تَزْكِيَةً بل هي شهادة، ولهٰذا جاء في آخر الحديث قال: «أنتم شهود الله في أرضه»، يشهد له أو يشهد عليه. أمَّا فُلَانٌ مُؤْمِنٌ، فَلَانٌ صَالِحٌ فلان فيه وفيه، فكثرة مثل هٰذه الأقوال من علامات آخر الزمان، كما جاء في الحديث: «حَتَّىٰ يُقَالَ لِلرَّجُلِ: مَا أَجْلَدَهُ، مَا أَظْرَفَهُ، مَا أَعْقَلَهُ، وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ» واليوم كَثُرَ في النَّاسِ الثَّنَاءُ علىٰ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، وتَوَسَّعُوا في ذلك تَوَسُّعًا يُخْشَىٰ مِنْهُ.

ومعلوم أن بابَ الثَّنَاءِ غَيْرُ باب الدعاء، التَّزْكِيَةُ شيء، وأن يُدْعَىٰ للمرء بما عمل من الصالحات شيءٌ آخر، الدعاء بما عمل مشروعٌ، ومكافأته بالدعاء، أو الدعاء له بما قَدَّمَهُ لك، أو ما قدمه لغيرك، أو قدمه للمؤمنين، هٰذا كله مشروع، لكنَّ الثَّنَاءَ العام أو التزكية مَنْهِيٌّ عنه.

وقد جاء في الحديث: «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَادِحًا أَخَاهُ لاَ مَحَالَةَ، فَلْيَقُلْ أَحْسِبُ فُلاَنًا، وَاللهُ حَسِيبُهُ، وَلاَ أُزَكِّي عَلَىٰ اللهِ أَحَدًا أَحْسِبُهُ كَذَا وَكَذَا، إِنْ كَانَ يَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْهُ» فلا بأس أن تقول: أَحْسِبُ فُلانًا كذا، ولا أزكي علىٰ الله أحدًا.

الدرس التاسع

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾.

يَقُولُ تَعَالَىٰ ذَامًّا لِمَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ طَاعَةِ اللهِ: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾[الْقِيَامَةِ]، ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَطَاعَ قَلِيلًا ثُمَّ قَطَعَهُ. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَعِكْرِمَةُ، وَقَتَادَةُ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ. قَالَ عِكْرِمَةُ وَسَعِيدٌ: كَمَثَلِ الْقَوْمِ إِذَا كَانُوا يَحْفِرُونَ بِئْرًا، فَيَجِدُونَ فِي أَثْنَاءِ الْحَفْرِ صَخْرَةً تَمْنَعُهُمْ مِنْ تَمَامِ الْعَمَلِ، فَيَقُولُونَ: «أَكْدَيْنَا»، وَيَتْرُكُونَ الْعَمَلَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾ أَيْ: أَعِنْدَ هٰذا الَّذِي قَدْ أَمْسَكَ يده خشية الإنفاق، وقطع مَعْرُوفَهُ، أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ أَنَّهُ سَيَنْفَدُ مَا فِي يَدِهِ، حَتَّىٰ قَدْ أَمْسَكَ عَنْ مَعْرُوفِهِ، فَهُوَ يَرَىٰ ذَلِكَ عِيَانًا؟! أَيْ: لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، وَإِنَّمَا أَمْسَكَ عَنِ الصَّدَقَةِ وَالْمَعْرُوفِ وَالْبِرِّ وَالصِّلَةِ بُخْلًا وَشُحًّا وَهَلَعًا؛ وَلِهٰذا جَاءَ فِي الحديث: «أَنْفِقْ بِلَالًا وَلَا تَخْشَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِقْلَالًا»، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾[سبأ].

وَقَوْلُهُ: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالثَّوْرِيُّ: أَيْ بَلَّغَ جَمِيعَ مَا أُمِرَ بِهِ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿وَفَّىٰٓ﴾ لِلَّهِ بِالْبَلَاغِ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: ﴿وَفَّىٰٓ﴾ مَا أُمِرَ بِهِ. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿وَفَّىٰٓ﴾ طَاعَةَ اللهِ، وَأَدَّىٰ رِسَالَتَهُ إِلَىٰ خَلْقِهِ. وَهٰذا الْقَوْلُ هُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ، وَهُوَ يَشْمَلُ الَّذِي قَبْلَهُ، وَيَشْهَدُ لَهُ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾[الْبَقَرَةِ:١٢٤] فَقَامَ بِجَمِيعِ الْأَوَامِرِ، وَتَرَكَ جَمِيعَ النَّوَاهِي، وَبَلَّغَ الرِّسَالَةَ عَلَىٰ التَّمَامِ وَالْكَمَالِ، فَاسْتَحَقَّ بِهٰذا أَنْ يَكُونَ لِلنَّاسِ إِمَامًا يُقْتَدىٰ بِهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾[النَّحْلِ].

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَوْفٍ الحِمْصي، حَدَّثَنَا آدَمُ بْنُ أَبِي إِيَاسٍ الْعَسْقَلَانِيُّ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، حَدَّثَنَا جَعْفَرِ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنِ الْقَاسِمِ، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: تَلَا رَسُولُ اللهِ ﷺ هٰذه الْآيَةَ:

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ قَالَ: «أَتَدْرِي مَا وَفَّىٰ؟» قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «وَفَّىٰ عَمَلَ يَوْمِهِ بِأَرْبَعِ رَكَعَاتٍ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ».

وَرَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ مِنْ حَدِيثِ جَعْفَرِ بْنِ الزُّبَيْرِ، وَهُوَ ضَعِيفٌ.

وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ فِي جَامِعِهِ: حَدَّثَنَا أَبُو جَعْفَرٍ السِّمْنَانِي، حَدَّثَنَا أَبُو مُسْهِرٍ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَيَّاشٍ، عَنْ بَحِيرُ بْنُ سَعْدٍ، عَنْ خَالِدِ بْنِ مَعْدان، عَنْ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيرٍ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ وَأَبِي ذَرٍّ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَنِ اللهِ، عَزَّوَجَلَّ، أَنَّهُ قَالَ: «ابْنَ آدَمَ ارْكَعْ لِي أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ، أَكْفِكَ آخِرَهُ».

قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ رَحِمَهُ اللهُ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا الرَّبِيعِ بْنِ سُلَيْمَانَ، حَدَّثَنَا أَسَدُ بْنُ مُوسَىٰ، حَدَّثَنَا ابْنُ لَهِيعَةَ، حَدَّثَنَا زَبَّان بْنُ قَائِدٍ، عَنْ سَهْلِ بْنِ مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ لِمَ سَمَّىٰ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَهُ الَّذِي وَفَّىٰ؟ إِنَّهُ كَانَ يقول كلما أصبح وأمسىٰ: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الرُّوم] حَتَّىٰ خَتَمَ الْآيَةَ. وَرَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي كُرَيْب، عَنْ رِشْدِين بْنِ سَعْدٍ، عَنْ زَبَّان، بِهِ.

ثُمَّ شَرَعَ تَعَالَىٰ يُبَيِّنُ مَا كَانَ أَوْحَاهُ فِي صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ فَقَالَ: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾ أَيْ: كُلُّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ نَفْسَهَا بِكُفْرٍ أَوْ شَيْءٍ مِنَ الذُّنُوبِ فَإِنَّمَا عَلَيْهَا وِزْرُهَا، لَا يَحْمِلُهُ عَنْهَا أَحَدٌ، كَمَا قَالَ: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ [فَاطِر: ١٨]، ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ أَيْ: كَمَا لَا يُحْمَلُ عَلَيْهِ وِزْرُ غَيْرِهِ، كَذَلِكَ لَا يُحَصِّلُ مِنَ الْأَجْرِ إلا ما كسب هو لنفسه. ومن وهٰذه الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ اسْتَنْبَطَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَهُ أَنَّ الْقِرَاءَةَ لَا يَصِلُ إِهْدَاءُ ثَوَابِهَا إِلَىٰ الْمَوْتَىٰ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ عَمَلِهِمْ وَلَا كَسْبِهِمْ؛ وَلِهٰذا لَمْ يَنْدُبْ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ أُمَّتَهُ وَلَا حَثَّهُمْ عَلَيْهِ، وَلَا أَرْشَدَهُمْ إِلَيْهِ بِنَصٍّ وَلَا إِيمَاءٍ، وَلَمْ يُنْقَلْ ذَلِكَ عَنْ أَحَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَلَوْ كَانَ خَيْرًا لَسَبَقُونَا إِلَيْهِ، وَبَابُ الْقُرُبَاتِ يُقْتَصَرُ فِيهِ عَلَىٰ النُّصُوصِ، وَلَا يُتَصَرَّفُ فِيهِ بِأَنْوَاعِ الْأَقْيِسَةِ وَالْآرَاءِ، فَأَمَّا الدُّعَاءُ وَالصَّدَقَةُ فَذَاكَ مُجْمَعٌ عَلَىٰ وُصُولِهِمَا، وَمَنْصُوصٌ مِنَ الشَّارِعِ عَلَيْهِمَا.

وَأَمَّا الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: مِنْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ، أَوْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ مِنْ بَعْدِهِ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ»، فَهٰذه الثَّلَاثَةُ فِي الْحَقِيقَةِ هِيَ مِنْ سَعْيِهِ وَكَدِّهِ وَعَمَلِهِ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ

كَسْبِهِ، وَإِنَّ وَلَدَهُ مِنْ كَسْبِهِ». وَالصَّدَقَةُ الْجَارِيَةُ كَالْوَقْفِ وَنَحْوِهِ هِيَ مِنْ آثَارِ عَمَلِهِ وَوَقْفِهِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾ الْآيَةَ [يس: ١٢]. وَالْعِلْمُ الَّذِي نَشَرَهُ فِي النَّاسِ فَاقْتَدَىٰ بِهِ النَّاسُ بَعْدَهُ هُوَ أَيْضًا مِنْ سَعْيِهِ وَعَمَلِهِ، وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: «مَنْ دَعَا إِلَىٰ هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنِ اتَّبَعَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا».

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ أَيْ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [التَّوْبَةِ] أَيْ: فَيُخْبِرُكُمْ بِهِ، وَيَجْزِيكُمْ عَلَيْهِ أَتَمَّ الْجَزَاءِ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ. وَهَكَذَا قَالَ هَاهُنَا: ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ أَيِ: الْأَوْفَرَ.

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله، وعلىٰ آله وصحبه ومن اهتدىٰ بهداه،

أما بعد؛ فهٰذه الآياتِ الْعَظِيمَةَ من هٰذه السورة الكريمة اشْتَمَلَتْ علىٰ أُصُولِ العمل الذي يُجْزَىٰ عليه العبدُ، وأنَّ أبَا الأنبياء إبراهيم عليه السلام قد أَكْمَلَ عمله، واستمر فيه، ولم يَقْطَعْهُ، وأنه خَلَّفَ ذلك فيمن بعده، وترك فيهم الكلمة العظيمة ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾.

وقول الله جل وعلا: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾ فهٰذه الآيات فيها بيان حالِ طائفة من الناس التي تُعْطِي ثُمَّ تَقْطَعُ، تَعْمَلُ ثم تَتْرُكُ، وكأنها بذلك قد عَلِمَتْ شيئًا من الغَيْبِ، فلهٰذا خَشِيَتْ أن لا يَسْتَمِرَّ غِنَاهَا، أو أن يَفُوتَهَا شيء من الدنيا.

وقوله جل وعلا: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾﴾ يعني عن طاعة الله، أو عن الاستمرار في طاعة الله، وأعطىٰ قليلًا مما آتاه الله جل وعلا. ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾﴾ أَكْدَىٰ معناه: قَطَعَ، والْقَطْعُ يكون قَطْعًا حَقِيقِيًّا بأن ترك الإعطاء، أو قطع ثوابها بالمنة، والمن في الصدقة يبطلها؛ كما قال جل وعلا: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾[البقرة:٢٦٤]، فقوله جل وعلا: ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾﴾ أكدىٰ كما سمعت في التفسير بمعنىٰ قطع، والقطع يكون قطعا حقيقيا يعني يترك العطية أو يترك أدب

العطية، وأدب الصدقة، وأدب الإنفاق، وهو أن يُنْفِقَ ابتغاءَ ما عند الله جل وعلا، لا يُتْبِعُ ما أَنْفَقَ منًّا ولا أَذَىٰ.

ثم قال تعالىٰ: ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾ وهٰذا تَوْبِيخٌ له في قَطْعِهِ لِعَمَلِهِ الصَّالِحِ بِتَرْكِهِ، أو بالأَذَىٰ بِالْمَنِّ بالصدقة فقال: ما سَبَبُ ذلك؟ وَوَبَّخَهُ علىٰ شيء يعلم هٰذا الذي قَطَعَ وأَكْدَىٰ أنه ليس مُتَحَقِّقًا فيه، وهو عِلْمُ الْغَيْبِ.

فمعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾ هل يعلم ما في الغيب بأنه لن يأتيه من الله عِوَضُ ما أنفق فهو يرىٰ ذلك رأيا بَيِّنًا، أو أن هٰذا الذي بَذَلَهُ أنه سَيُثَابُ عليه جَزْمًا، ولو أتبعه بِالْمَنِّ والأَذَىٰ، هل ضمن ذلك، هل عنده اطِّلَاعٌ علىٰ علم الغيب، فلذلك هو يَقْطَعُ أو يَمُنُّ، ولا يخشىٰ من الله جل وعلا العقوبة.

قوله تعالىٰ: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ معناه: أم أن الحقيقة أنه ليس عنده عِلْمٌ بما جاءت به الأنبياء والرسل إلىٰ آخر ما جاء في الآيات، كما سيأتي.

قوله ﷻ: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾﴾ الفاء هنا الآتية بعد الهمز هي والواو يكثر مَجيئها في القرآن بعد الْهَمْزِ، وتكون عاطفة لما بعدها علىٰ جملة محذوفة قبلها، تُقَدَّرُ بحسب سياق الكلام والمقصود منه.

وقوله: ﴿تَوَلَّىٰ﴾ التَّوَلِّي في حقيقته اللغوية: إعطاءُ الظَّهْرِ لِلْمُقْبِلِ عليه، فإذا أقبل ثم أَعْطَىٰ ظَهْرَهُ لمن أَقْبَلَ عليه يقال: تَوَلَّىٰ، فأقبل ثم ترك، ولهٰذا يُقال: وَلَّىٰ فلانٌ هَارِبًا من هٰذا الباب. ويُقال: تَوَلَّىٰ بعد إقبال، وأَدْبَرَ بعد إقبال، والمعنىٰ مُتَقَارِبٌ.

فهٰذا الذي أقبل ثُمَّ أَدَارَ ظَهْرَهُ لَمَّا أَقْبَلَ عليه وتركه، فيكون ما بعده وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾﴾ فيه صورة من صُوَرِ إِدْبَارِهِ، وهو أنه قطع الْعَطِيَّةَ، وإلا فالتولي عن الْحَقِّ يَعُمُّ تَرْكَ استمرار الإعطاءِ، أو قطع الإعطاء، أو ترك الحق والهدىٰ، بعد إذ آتاه الله جل وعلا، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾[الليل] إلىٰ آخر الآيات، فوَصَفَ حَالَ الْمُقْبِلِ وحال الْمُدْبِرِ الْمُتَوَلِّي، والسياق أفادَ فَائِدَةً بلاغِيَّةً وهي تَهْوِينُ ما أَعْطَىٰ، والاستهانة به، ومعلوم أن الشيء القليلَ إذا كان طاعةً لله وكانت نِيَّتُهُ صالحة فإنه يَعْظُمُ، وأنَّ الشَّيْءَ الكثيرَ إذا خَالَطَهُ الرِّيَاءُ والْمَنُّ

والأذىٰ وأشباه ذلك فإنه يَصْغُرُ، ويكون قليلًا لا خَيْرَ فيه، فالْعِبْرَةُ في الكثرة والقلة ليست بالأرقام، وإنما هي بالحقائق الشرعية؛ كما قال عليه الصلاة والسلام فيما ثبت في الحديث الصحيح: «سَبَقَ دِرْهَمٌ مِائَةَ أَلْفٍ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ؛ وَكَيْفَ؟ قَالَ: «رَجُلٌ لَهُ دِرْهَمَانِ فَأَخَذَ أَحَدَهُمَا فَتَصَدَّقَ بِهِ، وَرَجُلٌ لَهُ مَالٌ كَثِيرٌ فَأَخَذَ مِنْ عُرْضِ مَالِهِ مِائَةَ أَلْفٍ، فَتَصَدَّقَ بِهَا» فإنه لم يُؤَثِّرْ فيه هٰذه المائة ألف درهم، وليست بنصف ماله، ولا بنحو ذلك.

فإذن الْعِبْرَةَ في الْقِلَّةِ والْكَثْرَةِ إنما هي بِمَعَانِي الإيمان، وهٰذا كما يَصْدَقُ في الأموال يَصْدُقُ في الناس والعبادات، فالصلاةُ قَلِيلُهَا مع خشوع وتكميلٍ أعظمُ من كثيرها بلا خُشُوعٍ ولا تَكْمِيلٍ، وكذلك الكثرةُ في الجهاد وأشباه ذلك ليست بذات بَالٍ؛ بل المقصود الْمَعْنَىٰ، وقد قال تعالىٰ: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾[التوبة:٢٥] الآيات، وقال جل وعلا أيضًا في ذكر غزوة بدر، وما كان فيها: ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ﴾[الأنفال:٤٣].

إذن المسألة الشَّرْعِيَّةُ ليست مَبْنِيَّةً علىٰ الأعداد، لا في أمر العبادةِ في الصلاة، ولا في الصدقة، ولا في الصيام، ولا في الحج، ولا في الجهاد، وكذلك في أمر الدعوة، فالمقصود أن يكونَ الإعطاءُ والْبَذْلُ والجهاد والدعوة علىٰ الوجه الصحيح الذي يرضىٰ عنه الله جل وعلا، لهٰذا ناسب في هٰذه الآية مجيء تَوْفِيَةِ إبراهيم عليه السلام وهو تكميله لعمله، وتكميله لطاعة ربه، حيث قال: ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ ﴾ يَعْنِي أَكْمَلَ عمله وطاعته لربه جل وعلا.

﴿ وَأَكْدَىٰ ﴿٣٤﴾ ﴾ الْهَمْزُ فيها ليس همز تَعْدِيَةٍ، لأن الهمزَ يَدْخُلُ علىٰ الفعل، ويُعَدِّىٰ الفعل من الفاعل إلىٰ المفعول، أي: يكون الفعل مُتَعَدِّيًا بعد أن كان لازِمًا، وتارة يأتي الهمز ويكون الفعل لازمًا، ولهٰذا أمثلة في النَّحْو، وليست كل همزة تأتي في الفعل أو أشباه ذلك تكون للتعدية، أكدىٰ عمله؛ يعني قطعه، أكدىٰ هو؛ يعني انقطع هو.

ثم قال: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ ﴾ إبراهيم عليه السلام وفَّىٰ، وسمعت الأقوال في تَوْفِيَتِهِ يجمعها أنه أطاع الله جل وعلا، وكَمَّل طاعته، وبلَّغ رسالته كاملة، كما قال جل وعلا: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾[البقرة:١٢٤] ابتلاه بكلمات شرعية، وهٰذه الكلمات الشرعية

مشتملة علىٰ أوامر يجب امتثالها، وعلىٰ أخبار يجب التَّصْدِيقُ بها، كما قال سبحانه: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾[الأنعام:١١٥]، يَعْنِي صِدْقًا في الأخبار، وعَدْلًا في الأمر والنَّهْي، فإبراهيم عليه السلام ابْتُلِيَ بكلماتٍ بُعِثَ بها، وأُمِرَ بالعمل بها، وابْتُلِيَ بكلمات من صفة الله جل وعلا، وأُمُورِ الغيب إلىٰ آخره، فَوَفَّىٰ ما جعله الله جل وعلا مُوحًىٰ إليه، فَعمَل بالأوامرِ وصَدَّقَ بالأخبار، وكَمَّل ذلك، فتَوْفِيَةُ إبراهيم هي إتمام ما أُمِرَ بِبَلَاغِهِ وإبلاغه.

قوله ﷻ: ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ ﴾ أَلَّا هنا مُشْتَمِلَةٌ علىٰ (أن) و(لا) و(أن) إما أن تكون مُخَفَّفَةً من الثقيلة، كأنه قال: وأنه لا تزر وازرة وزر أخرىٰ، وهٰذا يكون تفسيرًا للتَّوْفِيَةِ، أو تكون تَوْفِيَتُهُ بإبلاغه الرسالة، وإبلاغه للرسالة فيه معنىٰ القول والإبلاغ، فتكون أن تفسيرية، ما بعدها تفسير لما قبلها، فَوَفَّىٰ يعني بَلَّغَ رسالته، وأَتَمَّ البلاغ في رسالته.

﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ ﴾ وقوله: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ فـ(أنْ) في الموضعين تفسيرية، إذا قلنا: إنَّ ﴿وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ ﴾ ما بعدها تفسير لها، وهو بحث نحوي يكثر خلاف المفسرين فيه في أكثر المواضع في القرآن، في تقدير أن بالمخففة، أو بالتفسيرية.

﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ ﴾ يعني: أن المرء لا يُحْمَلُ عَلَيْهِ ذَنْبُ غيره وإنما يُحمل عليه ذنبه، وأن الآخَرَ لو أَذْنَبَ فإنه لا يَصِلُ ذَنْبُهُ لهٰذا الذي لم يذنب، لأن الذي لم يُذْنِبْ ولم يبذل سبيلًا للذنب، ولا فتح وسيلة له، فإنه ليس عليه جَرِيرَةٌ تصله من الآخر.

وهٰذه قاعدة شرعية عامة، جاءت بها الرسل جميعًا، وهي: أن المرءَ لا يُؤَاخَذُ بذنب غيره، لأنه لم يَعْمَلْهُ ولم يكن وسيلة فيه، وأما إذا كان وسيلة فيه، أو سَنَّ هٰذا الأمر، فإن ما بَعَدَهُ يَصِلُهُ من ذَنْبِهِ، كما قال النبي ﷺ: «لَا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا، إِلَّا كَانَ عَلَىٰ ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا، لِأَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ» وأشباه ذلك.

فضابط عدم الْمُؤَاخَذَةِ بأن لا يكون عامِلًا بالذنب، أو فَتَحَ بابًا له، أما إذا أَعَانَ عليه، أو فتح بابًا له، أو سنّ وسيلة له، فإن عليه الْوِزْرُ، ووِزْرُ من اتبعه في ذلك.

ثم قال جل وعلا: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ هٰذه الجهة الأخرىٰ، وهي جهة العمل والثواب، فكما أنه لا يؤاخذ بِجَرِيرَةِ غَيْرِهِ فكذلك لا يعطىٰ من سَعْيِ غَيْرِهِ، فَغَيْرُهُ إذا سَعَىٰ فَسَعْيُهُ له، وليس لفلانٍ

سَعْي غيره، إلا إذا كان لفلان الذي سَعَىٰ أَثَرٌ من الأول، كأن يكون الأول فَتَحَ بابًا للخير، فجاء من اقتدىٰ به، أو تَصَدَّقَ، أو وَرَّث علمًا ينتفع به، أو نحو ذلك كما جاء في الحديث، وفي سورة الوزر، إذا فتح باب وسيلة، أو عَمِلَ سُنَّةً سَيئَّةٍ، فعليه الوزر، وكذلك إذا فتح باب وسيلة في الخير، أو سَنَّ سُنَّةً حسنة فله مثل أجر من اتَّبَعَهُ، لأن ذلك من سعيه.

سمعت كلام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الآية في مسألة إهداء ثواب القراءة للأموات، يعني أن يقرأ القارئُ شيئًا من القرآن، ويقول بعده: اللَّهمَّ اجعل ثواب قراءتي هٰذه لفلان.

وهٰذه المسألة اختلف فيها العلماء اختلافًا كثيرًا، علىٰ مذاهب متنوعة في هٰذه المسألة بخصوصها، وفي أصل المسألة، وهو: إهداء ثواب القُرب للأموات، والمذاهب فيها متعددة أشهرها:

المذهب الأول: أن الأعمال التي يَعْمَلُهَا المسلم ثَوَابُهَا لا يَصِلُ إلىٰ الميت، إلا فيما جاء فيه الدليل فقط، وأما ما لم يأتِ فيه الدليل فإنه ليس لِأَحَدٍ أن يُهْدِيَ الثواب للميت، وإذا أهدىٰ فإنه لا يَصِلُهُ، لأنه مخالف للسُّنَّةِ، فيأثم عليه، ولا يَصِلُهُ، لأنه ليس للإنسان إلا ما سعىٰ، وهو مذهب كثير من أهل العلم، ومن أهل الحديث.

المذهب الثاني: وهو كالمذهب الأول، لكنه يَخُصُّ أن يكون الساعي وَلَدًا لمن أَهْدَىٰ له الثواب، فليس كل من أَهْدَىٰ ثواب الصدقة، أو تَصَدَّقَ عن غيره، أو حَجَّ عن غَيْرِهِ يَصِلُهُ، بل لا بُدَّ أن يكون ولدًا له، وذلك لأنه قال: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾، وهٰذا حَصْرٌ، ويخرج به كل أنواع الإهداء، ويبقىٰ ما يدخل في سعيه، والولد من سعي المرء، كما قال في الحديث: «وَإِنَّ أَوْلَادَكُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ »، وهٰذا مذهب قليل من أهل العلم، وذهب إليه من المتأخرين الشوكاني والألباني رحمهما الله وغيرهما.

المذهب الثالث: أن سَعْي المرءِ لهُ، لا شَكَّ كما نصت الآية ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ وهٰذا حَصْرٌ، ولكن ليست الآية أنَّ سَعْيَ غيرهِ إذا تَبَرَّعَ به لذاك فإنه يَخْرُجُ عن كونه جائزًا أو مشروعًا.

فصُورَةُ هٰذا المذهب: أن المرء إذا عَمِلَ الطَّاعَةَ، تَصَدَّقَ، وقَرَأَ القرآن، وصَامَ وحَجَّ، وأشباه ذلك، فالثواب له، فقد سَعَىٰ وأُجِرَ علىٰ سَعْيِهِ، وإذا كان كذلك فله ما سعىٰ، والأجرُ صار إليه، فإذا تَبَرَّعَ بأجرهِ وثَوَابِهِ فلا يكون مُتَبَرِّعًا بسعيه، ولكن يكون متبرعًا بالأجرِ، والأجر له بالحسنات، فله أن يعطيه من شاء، لأن هٰذا الأجر له، وهٰذا المذهب قال به عدد من أئمة أهل السنة، كالإمام أحمد، وشيخ الإسلام ابن

تيمية، وابن القيم، وأكثر أئمة الدعوة، ويقول العلماء فيه: وأَيُّ قُرْبَةٍ تَقَرَّبَ بها المسلم، وأهدىٰ ثوابها لمؤمن حَيٍّ أو ميت نفعه ذلك، وهٰذا فيه سَعَةٌ.

والمقصود: أنه إذا فَعَلَ فإِنَّهُ يَصِلُ، لكنه ليس بِسُنَّةٍ، فعند الاختيار لا يُفْعَلُ، لأنه لَمْ يَجْرِ عليه عَمَلُ السَّلَفِ، لكن ليس كُلُّ ما لَمْ يَجْرِ عليه عمل السلف يُعَدُّ مَرْدُودًا كما هو معروف في القواعد، لأن هناك ضوابط منها: هل كانت الحاجة إليه أو لم تكن الحاجة إليه وأشباه ذلك.

ذهب ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفصيله لكلام شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أن هٰذا يَدْخُلُ في كُلِّ أَنْوَاعِ الْقُرَبِ حتىٰ صلاة النافلة، ولكن لا يُصَلِّي عن غيره، فَفَرَّقُوا بين صورتين، بين النِّيَابَةِ وبين إهداء الثواب، فالنِّيَّةُ في البداية أن لا تكون العبادات إلا بما جاء، فلا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ عن أحد، بمعنىٰ يَنْوِي بصلاته أن تكون عن فلان، فهٰذا لا يصلح، لأنه نِيَابَةٌ في العبادات، وقد جاء في الأثر عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: « لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ، وَلَا يَصُومَنَّ أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ »، ولكن إذا عملها لِنَفْسِهِ واستقر ثوابها إن كانت قُبِلَتْ، فعند ذاك إهداء الثواب هو إهداء أَجْرٍ حصل له فليس هو بِنِيَابَةٍ، وليس هو بإعطاء غيره سعيه، وإنما إعطاءُ الغيرِ ما ثَبَتَ له وهو الأجر، ولهٰذا أطال فيها شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ وعُدَّ هٰذا من اختياراته، حَتَّىٰ صلاة التطوع عنده له أن يُهْدِيَ ثوابها، لا يُصَلِّي عن غيره لكن يُهْدِي الثواب، يُهْدِي ثَوَابَ قيام ليلة لأبيه، يُهدي ثواب القراءة إذا قرأ، يُهدي ثواب الصدقة، أو ينويها من البداية لأنه جاءت به السُّنَّةُ في الصَّدَقَةِ.

فحاصل هٰذا المذهب التفريق بين النِّيَّةِ في أوله، وبَيْنَ إهداء الثواب في آخره، فما جاء في السُّنَّةِ النِّيَابَةُ فيه مثل ما ذكر الصدقة والحج وأشباه ذلك، فإنه تُجْزِئُ النِّيَّةُ من أوله، وما لم يأت فيه الدليل، فإنه ليس للإنسان إلا ما سَعَىٰ، فإذن عمله علىٰ تقدير أنه قُبِلَ مِنْهُ وأُثيبَ، فإن له أن يُهْدِيَ ثَوَابَهُ، وهٰذا كما ذكرت لك لا علىٰ وجه الاختيار، فالنَّاسُ يُعَلَّمُونَ السُّنَّة، لكن لو عَمِلَ أحدٌ ذلك، أو قرأ وأهدىٰ الثواب فإنه يصل إليه.

قوله تعالىٰ: ﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ من الذي يَرَىٰ سَعْيَهُ ؟ يراه الله جل وعلا، ويراه رسوله، ويراه المؤمنون أيضًا، فيما يُنْشَرُ من الصحائف إلا ما سَتَرَهُ الله جل وعلا عليه من الذنوب.

قوله تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ إن الله سبحانه لا يَظْلِمُ الناسَ شيئًا؛ بل يجزي الله جل وعلا الذي يعمل بالْخَيْرِ الأوفرِ الكاملِ، فَيُضَاعِفُ رَبُّ العالمين لمن شاء.

سؤال: هل يُعَدُّ إهداء الثواب للغير مُخَالِفًا لقوله تعالىٰ: ﴿ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ ﴾ ؟

الجواب: قوله تعالىٰ: ﴿ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ ﴾ اللَّامُ هٰذه لَامُ الْمِلْكِ، يعني لا تَمْلِكُ إلا ما سَعَيْتَهُ، أما ما سَعَاهُ غَيْرُكَ فلا تملكه أنت، ليس لك، وإنما هو له، فهو الذي يَمْلِكُهُ، فإذا ملك هو عمله فمعنىٰ ذلك أنه يملك ثواب عمله، فهو إذا أراد أن يَتَبَرَّعَ بذلك، فله ذلك.

فمن أَهْدَىٰ الثواب فالسَّعْيُ له أصلًا، فإهداء ثوابه فرعٌ عن تَمَلُّكِهِ، فلا يقال إن الأول مَلَكَهُ بسعي غيره، لأنه مناقض للآية، فعمل فلان العمل فكان لغيره، هٰذا ظُلْمٌ، كما أنه لا يُحْمَلُ عليه وِزْرُ غيره، كذلك لا يأتيه من سَعْيِ غَيْرِهِ، لأن سعي غيره له. فإهداء الثواب لا يعني مخالفة الآية، لأن اللام فيها للملك.

سؤال: ما قولكم في حديث: « إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ، وَعِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ، وَوَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ »؟

الجواب: قد ذكرنا هٰذا وقلنا: إن الثلاث المذكورة هٰذه من سَعْيِهِ، لأنه يملكها، فالعلمُ الذي يُنْتَفَعُ به من سَعْيِهِ فله، والصدقة الجارية من سَعْيِهِ فله، والولد الصالح من سعيه: «وإنَّ وَلَدَكُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ» فهو له، الكلام علىٰ سَعْيِ غيره، أما إذا كان سَعَىٰ فيه فليس الكلام فيه.

سؤال: هل يجوز أن يُدْخِلَ الإنسانُ غيرَهُ في العمل، بأن يُهْدِيَ له عمله ؟

الجواب: هو حُرٌّ يُدْخِلُ نَفْسَهُ، أو يدخل غيره، لكن لا يُهْدِي ثواب الفرائض، بل يُهْدِي ثواب القُرَبِ، فإذا هو له، علىٰ قول شيخ الإسلام ابن القيم، والإمام أحمد والجماعة، لو أَهْدَىٰ الثَّوَابَ هو له، إذا أراد أن يَتَبَرَّعَ بأجْرِهِ، مثل من يعمل سَنَةً ويتعب، ويأخذ مائة ريال، ثم يعطيها غيره تبرعًا، هو أَجْرٌ، سمىٰ الله جل وعلا ثَوَابَ العامل في القرآن أجرًا.

سؤال: متىٰ تجوز النيابة في العمل ؟

الجواب: النِّيَابَةُ تَكُونُ في أول العمل، يَتَصَدَّقُ عن فلان في أوله، يَحُجُّ عن فلان في أوله، ولا تَجُوزُ النيابة إلا فيما جاء فيه الدليل، لأن هٰذا ابتداء العمل، تعمل العمل ابتداءً لا بُدَّ أن يكون علىٰ سُنَّةٍ، ولو عَمِلَ الْعَمَلَ ابتداءً علىٰ غير سُنَّةٍ لكان باطلًا، يعني مثلًا لو قال: اللَّهُمَّ إني أَنْوِي بِقِرَاءتِي هٰذه لأبي، أنوي بقراءتي هٰذه لفلان من أهل العلم، ماذا يكون هٰذا؟ العبادة مبناها علىٰ التوقيف، هٰذه عبادة، فهو ينشئ

عبادة يَنُوبُ فيها عن غيره، لكنه إذا عَمِلَهَا وقُدِّرَ أَنَّهُ ثَبَتَ الأجر، فالأجر له يُعْطِيهِ غيره، هٰذه ليست نيابة، هٰذا الآن فرغ من العملِ، العملُ انتهىٰ، فَوَقَعَ الْعَمَلُ علىٰ وِفْق الشريعة، لكن بَقِيَ الثَّوَابُ، هل يُبْقِيه له أم يُعْطِي ثَوَابَه لِغَيْرِهِ، له أن يُبْقِيَ الثواب لنفسه، أو يعطيَ غيره، ولذلك الفرق بين الفرائض والنوافل في هٰذه السورة أنّ الْفَرْضَ ليس المقصودُ منه الثواب فقط، وإنما المقصود به أيضًا سقوطُ التَّكْلِيفِ، يعني براءةَ الذِّمَّةِ والإجزاء، التكليف لأنه فرضٌ لا يجوز له أن يهدي ثوابه لغيره، لأن هٰذا الفرض شمل شيئين:

الأول: أَنَّهُ أَجْزَأَ، ولما أجزأ أُثِيبَ، فلا يتصور الفرق ما بين إثابته وقبوله وإجزائه.

الثاني: سقوط التكليف الخاص به.

سؤال: بأي نِيَّةٍ يُهْدِي العبادة لغيره ؟

الجواب: لا يُهْدِيهِ بنية العبادة، بمعنىٰ أَنَّهُ يَنْوِي بهٰذه العبادة امتثال الأمر الذي تَوَجَّهَ له، ينوي بهٰذه العبادة التقرب إلىٰ الله جل وعلا بنفسه، فهو حين تَقَرَّبَ تَقَرَّبَ لنفسه، وقعت العبادة صحيحة قربةً إلىٰ الله جل وعلا، فَثَبَتَ الْأَجْرُ، ثم بعد ذلك يأتي إن شاء أهدىٰ، وأعطىٰ، أو لم يعط، هٰذه صورة القول الثاني.

سؤال: هل الإهداء يكون قَبْلَ العمل أم بعده ؟

الجواب: هو يَرْجُو، أو نيته أنه يُهدي، أو نية العبادة، لأن نِيَّةَ العبادة «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ» هي قبل العبادة، أما ما سيعمله بعد هٰذا ليس له، مثل ما يقول أنه ينوي في الزكاة، ثم يقول: أنا إذا أخرجت الزكاة أريد أن أتصدق عن والدي، هٰذا شيء في نفسه، يعني سيعمله بعد أداء العبادة، هٰذا لا أثر له في النية.

سؤال: قال الشافعي في أبيات له:

مَــنْ يَــزْنِ يُــزْنَ بــه وَلَــوْ بِجِــدَارِهِ إِنْ كُنْــتَ يَــا هٰــذا لَبِيبًــا فَــافْهَم

ما معنىٰ الأبيات ؟

الجواب: الأبيات ليست واضحة، وكون أَنَّهُ يُرَدُّ للإنسانِ في أَهْلِهِ، أو في بَيْتِهِ، أو في جِدَارِهِ، هٰذا الكلام ليس منضبطًا شرعًا، وليس عليه دليل.

إنَّ الْعَبْدَ يَخْشَىٰ من ذنوبه، ويخشىٰ أنه إذا انْتَهَكَ حُرمَاتِ المسلمين أن تُنْتَهَكَ حُرْمَتُهُ، لأن الله جل وعلا يقول: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثۡلُهَا ﴾ [الشورىٰ:٤٠].

الدرس العاشر

﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ ﴾ أَيِ: الْمَعَادُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا سُوَيد بْنُ سَعيد، حَدَّثَنَا مُسْلِمُ بْنُ خَالِدٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَابِطٍ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ الأَوْدِيّ قَالَ: قَامَ فِينَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ فَقَالَ: يَا بَنِي أَوْدٍ، إِنِّي رسولُ رَسُولِ اللهِ إِلَيْكُمْ، تَعْلَمُونَ أَنَّ الْمَعَادَ إِلَى اللهِ، إِلَى الْجَنَّةِ أَوْ إِلَى النَّارِ.

وَذَكَرَ الْبَغَوِيُّ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي جَعْفَرٍ الرَّازِيِّ، عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ، عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ، عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ ﴾، قَالَ: لَا فكرة فِي الرَّبِّ.

قَالَ الْبَغَوِيُّ: وَهٰذا مِثْلُ مَا رُوِي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا: «تفكَّروا فِي الْخَلْقِ وَلَا تُفَكِّرُوا فِي الْخَالِقِ، فَإِنَّهُ لَا تُحِيطُ بِهِ الفِكْرة».

كَذَا أَوْرَدَهُ، وَلَيْسَ بِمَحْفُوظٍ بِهٰذا اللَّفْظِ، وَإِنَّمَا الَّذِي فِي الصَّحِيحِ: «يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ حَتَّىٰ يَقُولَ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَ أَحَدُكُمْ ذَلِكَ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ وَلْيَنْتَه».

وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ الَّذِي فِي السُّنَنِ: «تَفَكَّرُوا فِي مَخْلُوقَاتِ اللهِ، وَلَا تُفَكِّرُوا فِي ذَاتِ اللهِ، فَإِنَّ اللهَ خَلَقَ مَلَكًا مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَىٰ عَاتِقِهِ مَسِيرة ثَلَاثِمِائَةِ سَنَةٍ» أَوْ كَمَا قَالَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ أَيْ: خَلَقَ فِي عِبَادِهِ الضَّحِكَ، وَالْبُكَاءَ وَسَبَّبَهُمَا وَهُمَا مُخْتَلِفَانِ.

﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ ﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ ﴾ [الْمُلْك: ٢]، ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾[الْقِيَامَة].

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ ﴾ أَيْ: كَمَا خَلَقَ الْبَدَاءَةَ هُوَ قَادِرٌ عَلَىٰ الْإِعَادَةِ، وَهِيَ النَّشْأَةُ الْآخِرَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾ أَيْ: مَلَّك عِبَادَهُ الْمَالَ، وَجَعَلَهُ لَهُمْ قُنْيَة مُقِيمًا عِنْدَهُمْ، لَا يَحْتَاجُونَ إِلَىٰ بَيْعِهِ، فَهٰذا تَمَامُ النِّعْمَةِ عَلَيْهِمْ. وَعَلَىٰ هٰذا يَدُورُ كَلَامُ كَثِيرٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ، مِنْهُمْ أَبُو صَالِحٍ، وَابْنُ جَرِيرٍ،

وَغَيْرُهُمَا. وَعَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿أَغْنَىٰ﴾: مَوَّل، ﴿وَأَقْنَىٰ﴾: أَخْدَمَ. وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ أَيْضًا: ﴿أَغْنَىٰ﴾: أَعْطَىٰ، ﴿وَأَقْنَىٰ﴾: رَضَّىٰ.

وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: أَغْنَىٰ نَفْسَهُ وَأَفْقَرَ الْخَلَائِقَ إِلَيْهِ، قَالَهُ الْحَضْرَمِيُّ بْنُ لَاحِقٍ.

وَقِيلَ: ﴿أَغْنَىٰ﴾ مَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ ﴿وَأَقْنَىٰ﴾: أَفْقَرَ مَنْ شَاءَ مِنْهُمْ، قَالَهُ ابْنُ زَيْدٍ. حَكَاهُمَا ابْنُ جَرِيرٍ وَهُمَا بَعِيدَانِ مِنْ حَيْثُ اللَّفْظُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ، وَابْنُ زَيْدٍ، وَغَيْرُهُمْ: هُوَ هَٰذَا النَّجْمُ الْوَقَّادُ الَّذِي يُقَالُ لَهُ: «مِرْزَم الْجَوْزَاءِ» كَانَتْ طَائِفَةٌ مِنَ الْعَرَبِ يَعْبُدُونَهُ.

﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ وَهُمْ: قَوْمُ هُودٍ. وَيُقَالُ لَهُمْ: عَادُ بْنُ إِرَمَ بْنِ سَامَ بْنِ نُوحٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾﴾[الْفَجْر]، فَكَانُوا مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ وَأَقْوَاهُمْ وَأَعْتَاهُمْ عَلَىٰ اللهِ وَعَلَىٰ رَسُولِهِ، فَأَهْلَكَهُمُ اللهُ ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الْحَاقَّة].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾﴾، أَيْ: دَمَّرَهُمْ فَلَمْ يُبْقِ مِنْهُمْ أَحَدًا، ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أَيْ: مِنْ قَبْلِ هَؤُلَاءِ، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾﴾ أَيْ: أَشَدُّ تَمَرُّدًا مِنَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ، ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾﴾ يَعْنِي: مَدَائِنَ لُوطٍ، قَلَبها عَلَيْهِمْ فَجَعَلَ عَالِيَهَا سَافِلَهَا، وَأَمْطَرَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ؛ وَلِهَذا قَالَ: ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾ يَعْنِي: مِنَ الْحِجَارَةِ الَّتِي أَرْسَلَهَا عَلَيْهِمْ ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الشُّعَرَاءِ].

قَالَ قَتَادَةُ: كَانَ فِي مَدَائِنِ لُوطٍ أَرْبَعَةُ آلَافِ أَلْفِ إِنْسَانٍ، فَانْضَرَمَ عَلَيْهِمُ الْوَادِي شَيْئًا مِنْ نَارٍ وَنِفْطٍ وقَطِران كَفَمِ الْأَتُونِ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ وَهْبِ بْنِ عَطِيَّةَ، عَنِ الْوَلِيدِ بْنِ مُسْلِمٍ، عَنْ خُلَيْدٍ، عَنْهُ بِهِ. وهو غريب جدا.

﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ أَيْ: فَفِي أَيِّ نِعَمِ اللهِ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ تَمْتَرِي؟ قَالَهُ قَتَادَةُ.

وَقَالَ ابْنُ جُرَيجٍ: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ يَا مُحَمَّدُ. وَالْأَوَّلُ أَوْلَىٰ، وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ.

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

الْحَمْدُ لله، والصَّلَاةُ والسَّلَامُ علىٰ رسول الله، وعلىٰ آله وصَحْبِهِ، ومن اهْتَدَىٰ بهداه.

أما بعد؛ فأسأل الله جل وعلا أنْ يَنْفَعَنَا بما نَعْلَمُ، وأنْ يُوَفِّقَنَا لما يُحِبُّ ويَرْضَىٰ.

ثم هٰذه الآيات اشْتَمَلَتْ عَلَىٰ ذِكْرِ الْمَبْدَإِ والْمَعَادِ، وعلىٰ إِفْرَادِ رُبُوبِيَّةِ الله جل وعلا، فإن الله سبحانه هو الذي بَدَأَ الْخَلْقَ، وهو الذي يُعِيدُهُ، وهو الذي تَفَرَّدَ بالخلق، وهو الذي مَنَّ علىٰ المخلوقات بحفظها، والْقَوَامَةِ عليها، ومَنَّ علىٰ الإنسان بصفة خاصة بأنواعٍ من النِّعَمِ، فمن تأمل صفات الربوبية عَظَّمَ الله جل وعلا، وأَنَابَ إليه.

وهٰذه الآيات فيها تقرير توحيدِ الرُّبُوبِيَّةِ التي من تأملها عظم الله جل وعلا وأناب إليه، وذكرت لكم من قبل أن القرآن فيه تقرير توحيد الربوبية، وبيان مفرداته بأنواع من التقرير، وتقريره يفيد فوائد:

الأولىٰ: أن المشركين الذين أَقَرُّوا بأنواعٍ من توحيد الربوبية يَلْزَمُهُمْ إقرارهم أن يُوَحِّدُوا الله جل وعلا في الْعِبَادَةِ، فمن أَيْقَنَ أنَّ الله وحده هو الخالق، وهو الرازق، وهو الْمُحْيِي، وهو الْمُمِيتُ، وهو الذي إليه يُرْجَعُ الأمر كله، وأنه هو الذي يُنْعِمُ ويَرْزُقُ ويَتَفَضَّلُ، فواجب أن يُعْبَدَ وحده، وهٰذا دليل عَقْلِيٌّ يمكن أن يُصار إليه، لو صحت عُقُولُ المشركين، ففي القرآن كثير من الآيات فيها تَقْرِيرُ الْأُلُوهِيَّةِ بعد تقرير تَوحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ.

الفائدة الثانية: أن تَعْظِيمَ الله جل وعلا في نَفْسِ المؤمنِ الْمُوَحِّدِ وفي العبادة، ومُرَاقَبَتُهُ سبحانه تكونُ بإِفْرَادِهِ بتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، فإذا عَلِمَ أن الله جل وعلا هو الذي خَلَقَ، وأنه يُرجَعُ إليه الأمر كله، وأن إليه الْمُنْتَهَىٰ، وهو الذي يعطي ويمنع، وهو الذي يدبر الأمر كله، وهو الذي أهلك الأولين صار في قَلْبِ المؤمن أنواعٌ من العبودية، عُبُودِيَّةُ الرَّجَاءِ والْخَوْفِ، وعبودية الْمُرَاقَبَةِ، وعبودية الْخَشْيَةِ، وعبودية الإِنَابَةِ، وأنواع من العبادات الْقَلْبِيَّةِ.

ففي تَقْرِيرِ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، إقامةٌ لِقَلْبِ الْعَبْدِ في توحيد الإلهية، فإن إِقْرَارَ الْعَبْدِ أن الله جل وعلا هو الْمُسْتَحِقُّ للعبادةِ وَحْدَهُ قد لا يجعله يعمل الأعمال الصالحة بأنواع عبادات القلب؛ بل لَا بُدَّ من تَأَمُّلِهِ في الخلق، وتَفَكُّرِهِ في آلاءِ الله جل وعلا، حَتَّىٰ يَحْدُثَ في قَلْبِهِ عِظَمُ التَّوَكُّلِ علىٰ الله، وعِظَمُ الخوفِ منه، والرَّجَاءُ فيه سُبْحَانَهُ، والْإِنَابَةُ إليه.

وهٰذا هو المقصود من تقرير توحيد الربوبية، تَصْحِيحُ قَلْبِ الْمُوَحِّدِ المؤمن، وإقامة الْحُجَّةِ علىٰ المشركين.

إن قوله تعالىٰ: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ ﴾ معطوفٌ علىٰ ما قبله، وهو قوله جل وعلا:﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ ﴾، فهٰذا هو الذي في صُحُفِ موسىٰ، وفي صحف إبراهيم عليهما السلام، وهٰذا مقرر في جميع الكتب، لأن فيها صِفَاتِ الرُّبُوبِيَّةِ التي فيها إِقَامَةُ قَلْبِ الْمُوَحِّدِ، والحجة علىٰ المشرك.

قوله تعالىٰ: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ ﴾ تقدير الكلام: أن المنتهىٰ كائن إلىٰ ربك، وصائرٌ إلىٰ ربك، وتقديم الجار والمجرور ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ يُفِيدُ الاختصاصَ بأن المنتهىٰ إليه وحده دونما سواه.

وفي ذكر الرُّبُوبِيَّةِ وعدم ذكر الْأُلُوهِيَّةِ في قوله: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ ﴾ ولم يقل: وأن إلىٰ الله المنتهىٰ، فيه: أن الإرجاع ومنتهىٰ الأشياء إلىٰ الله جل وعلا، لأجل تَفَرُّدِهِ سبحانه بالرُّبُوبِيَّةِ، ففي ذكر كلمة رب تقرير الربوبية في هٰذه الأشياء.

﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ ﴾ وأنه أي: الرب. والإرجاع إلىٰ الرب، فيه تقرير الربوبية، لأنه ذكر ذلك من صفات الرب جل جلاله.

والإضافة في قوله: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ ﴾، وتخصيص النبي ﷺ بإضافة الربوبية إليه فيها فائدتان:

الأولىٰ: التَّشْرِيفُ، تَشْرِيفُ محمد عليه الصلاة والسلام بهٰذه الإضافة.

والثانية: التَّنْبِيهُ علىٰ أن هٰذا الذي جاء بهٰذا القرآن، وبهٰذه الرسالة مرجعه إلىٰ الله، وأن الله سَيُحَاسِبُهُ، يعني: أنه سَيَلْقَىٰ ربه جل وعلا، وسينتهي أمره إليه فليحذر من هو دونه من الناس في ذلك، وهٰذا من جِنْسِ قوله جل وعلا: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر:٦٥]، ومن دنس قوله: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ﴾[الزمر]، ونحو ذلك مما فيه ذُكِّرَ محمد عليه الصلاة والسلام، أو ذُكِّرَ الْأَنْبِيَاءُ بالرجوع إلىٰ الله جل وعلا.

فـ﴿ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ ﴾ تَدُلُّ علىٰ الرجوع يوم القيامة، وأن مُنْتَهَىٰ الخلائق إليه ﷻ، أي: أنهم راجعون إليه وصائرون إليه، وأَنَّهُ مُحَاسِبُهُمْ سبحانه، وسَيَلْقَىٰ كُلُّ عامل ما عمل، وهٰذا من باب التَّمْثِيلِ، والمنتهىٰ إلىٰ الله جل وعلا في كل شيء، سواء في إرجاع الأبدان والأرواح، وأنه هو الذي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثم يُعِيدُهُ، وهو أهون عليه، فكل شيء صائر إلىٰ الله كما قال تعالىٰ:﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [غافر:٤٣]، ومنتهىٰ كل شيء من

جهات العلم، والقَيُّومِيَّة، والقدرة إلىٰ الله جل وعلا.

فالألف واللام في كلمة المنتهىٰ قد تُحْمَلُ علىٰ المعهود، يعني: ما ينتهي إليه الناس، وهو حشرهم ولقاؤهم إلىٰ الله، وقد تكون الألف واللام لِلْجِنْسِ، يعني: جنس منتهىٰ الأشياء، والأشياء منتهاها قد يكون من جهة العلم، فكل معلوم منتهاه إلىٰ الله جل وعلا عِلْمًا، وكل ما يُقَامُ فمنتهىٰ القوامة إلىٰ الله جل وعلا: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾[البقرة:٢٥٥]، ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾[هود:٥٦]، فهو سبحانه ذو القوامة ﷻ، الذي يُقِيمُ الأشياء ابتداء، ويَقُومُ عليها ﷻ انتهاء، وكذلك من جهة صفات الْغِنَىٰ والقُدْرَةِ، فَكُلُّ غِنًىٰ فَمُنْتَهَاهُ إلىٰ الله جل وعلا، وكلُّ أنواعِ الْقُوَّةِ منتهاها إلىٰ الله، وكل أنواع الْقُدْرَةِ منتهاها إلىٰ الله جل وعلا، فهو سبحانه الذي يَمْلِكُ الْكَمَالَ الْمُطْلَقَ، أما الْبَشَرُ فَلَهُمْ مِنْهُ البِدَايَاتُ، أما نهاية الصفات فهي إلىٰ الله جل وعلا.

قوله جل وعلا: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا ﴿٤٤﴾ ﴾ مجيءُ الضَّمِيرِ ﴿هُوَ ﴾ في الآيتين للتأكيد في الآيتين وفيما بعدها، تأكيد علىٰ أن الذي أَضْحَكَ وأَبْكَىٰ علىٰ الحقيقة هو الله جل وعلا وحده، وأنَّ الذي أَمَاتَ وأَحْيَا هو الله جل وعلا.

قوله تعالىٰ: ﴿أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ و﴿أَمَاتَ وَأَحۡيَا ﴿٤٤﴾ ﴾ فيه تَمْثِيلٌ علىٰ: أنه سبحانه هو الذي يقوم علىٰ كل ما يَحْصُلُ للعبد من الأمور المختلفة والمتقابلة، وعلىٰ هٰذا المثال أنه هو أَغْنَىٰ وأَفْقَرَ، أَمْرَضَ وأَصَحَّ، عَافَىٰ وابْتَلَىٰ، إلىٰ آخر الأمثلة، لهٰذا قابل بين الضَّحِكِ والْبُكَاءِ، لأنها أنواع الْمَسَرَّاتِ، وأنواع الْأَذَىٰ في الدنيا، و﴿أَمَاتَ وَأَحۡيَا ﴿٤٤﴾ ﴾ قابل بَيْنَ الْمَوْتِ والحياةِ لأجل أنه سبحانه يملك هٰذه المتضادات المختلفة.

قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ الزوجين هي تثنية زوج، والزَّوْجُ هو ضِدُّ الْفَرْدِ، قد يكون الزوج متشابها، وقد يكون غير متشابه مع زوجه، يعني: مشابها في الجنس، أو مُشَابِهًا في الصفات، أو يكون غير مشابه في الصفة.

الأول وهو المشابه لِزَوْجِهِ: منه قوله جل وعلا: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [الصافات] فَيُحْشَرُ كُلُّ واحدٍ مع زَوْجِهِ، يعني: مع شَبِيهِهِ، فَيُحْشَرُ الظَّالِمُ مع الظالم، ويُحْشَرُ الكَافِرُ مع الْكَافِرِ، ويُحْشَرُ الْمُنَافِقُ مع المنافقِ، والعَاصِي مع العَاصِي، والصَّالِحُ مع الصالح، الناس يكونون يوم

القيامة طرائق، يكونون زُمَرًا، كُلُّ مَثِيلٍ يُحْشَرُ مع أمثالِهِ ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ ﴾ يعني: أَشْبَاهَهُمْ في ظُلْمِهِمْ.

أما الثاني وهو غير المشابه لِزَوْجِهِ: فمنه قوله تعالىٰ: ﴿ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [يس]، ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾[النساء:١] يعني: الزَّوْجِيَّةَ، لأن الزَّوْجِيَّةَ لا تَعْنِي الْمُشَابَهَةَ في الصِّفَةِ، وقد تكون وقد لا تكون، لكن سُمِّيَ الزَّوْجُ زَوْجًا، فيطلق علىٰ الرجل وعلىٰ المرأة، فالمرأة زوج الرجل، والرجل زوج المرأة. وقول بعضهم: زوجة. هٰذا جائز في اللغة وفصيح، لكنه لم يأتِ في القرآن.

قوله سبحانه هنا: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ ﴾ يعني: أن كل واحد زوج للآخر، والذَّكَرُ والأنثىٰ ليس في الإنسان وحده، بل في كل ما يعني الزوجين اللذين خلقهما الله جل وعلا للحياة، هٰذا في كل ما فيه حياة، فَلَيْسَ ثَمَّ حياة إلا باختلاط الذكر بالأنثىٰ، أو اختلاط وتناكح الذي يحصل بين هاتين الجهتين في النبات، والحيوان، وفي الأشياء العظيمة، فكلها لَا بُدَّ فيها من زوجين كما في قوله تعالىٰ لنوح عليه السلام: ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾ [المؤمنون:٢٧].

قوله: ﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ ﴾ النشأة الأخرىٰ معلومة يوم القيامة، وهي إنبات الأجْسَادِ بعد الممات.

قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾ هناك من فَسَّرَ أَقْنَىٰ بـأَفْقَرَ، وأَغْنَىٰ بـالمعنىٰ المعروف، وهٰذا وإن كان مَنْقُولًا عن بعض السلف لكن اللغة لا تساعده، لأن كلمة أَقْنَىٰ في اللغة من الْقُنْيَةِ، وهو ما يُقْتَنَىٰ فيُحْتَفَظُ به وهي منه، قد يكون المرء غَنِيًّا لكنه لا يكون مُقْتَنِيًا لنفسه أشياء لا يحتاج أن يبيعها، لا أَنْ يُدَبِّرَهَا، فالْغِنَىٰ نِعْمَةٌ، وكون الإنسان يُدَّخِرُ له ما أعطاه الله جل وعلا أشياء يَقْتَنِيهَا من أنواع ما مَنَّ الله علىٰ عباده فهٰذه نعمة أخرىٰ، والعرب كانت تُفَاخِرُ بِغِنَاهَا وبما تَقْتَنِيهِ، فتجعل أشياء ليست للتصرف ولا للبيع، وتفاخر بذلك، إما من النَّعَمِ، يعني: من الْجِمَالِ، وإما من السِّلاحِ كـالْقَوْسِ، أو الـدُّرُوعِ، أو الْمَنَازِلِ، أو أشباهها.

فالنعمة حاصلة بإغناءِ الله جل وعلا لِلْعِبَادِ، وبالامْتِنَانِ عليهم أنه أَقْنَاهُمْ أشياء.

وهٰذه الآية فيها:

١- التَّنْبِيهُ علىٰ أن الذي أَغْنَىٰ والذي أَقْنَىٰ هو الله جل جلاله بالتأكيد بالضمير هو.

٢- التَّنْبِيهُ علىٰ الإخلاص.

٣- أن الْعَبْدَ فِي العبادة يجب عليه أن يَسْتَحْضِرَ نِعْمَةَ الله جل وعلا عليه وحده دونما سواه.

قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ الشِّعْرَىٰ نَجْمٌ مِن النُّجُومِ، وخَصَّهُ بالذِّكْرِ هنا لِبُعْدِهِ واسْتِنَارَتِهِ، ولأجل تَعَلُّقِ العرب به، إما مِنْ جِهَةِ الْعِبَادَةِ كما ذكر عن طائفة منهم، وإما مِنْ جِهَةِ الاهتداءِ ومعرفةِ الطُّرُقِ، فهو دائما أمامهم، فَذَكَّرَهُمْ به.

قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾﴾ عاد وثمود هم قَوْمُ صَالِحٍ، هؤلاء من العرب القديمة، يسمونهم فِي عِلْمِ الْأَنْسَابِ العربَ العارِبَةَ، مثل ما سمعت من ابن كثير؛ عَاد بن إِرَم بن سَام بن نوح، فإن نوحًا ﷺ جعل الله جل وعلا ذُرِّيَّتَهُ هم الباقين، وكان له ثلاث ممن الولد حَمَلَهَمْ معه وهم: سَام، وحَام، ويَافِث.

سام أبٌ للعرب والروم وفارس، ولهٰذا تسمىٰ هٰذه الأنواع الثلاثة العرب، والروم، وفارس، وجزء من شمال أفريقيا من القبائل التي عاشت هناك، هٰذه تسمىٰ القبائل السَّامِيَّةَ، نسبة إلىٰ سام، وتسمىٰ لغتهم اللغة السامية لأنها متداخلة.

وأما حَام فهو أبٌ للسُّودَان، يعني: للأجناس السود في أفريقيا وفي غيرها.

وأما يافث الثالث فهو أَبٌ للأَتْرَاكِ والصَّقَالِبَةِ والصين، الأتراك يعني: الروس، ليس التركُ البلدة المعروفة، هٰذه سميت تركيا لأن العثمانيين أصولهم من روسيا، فجاءوا فسميت البلد تركيا، فيافث هو أبٌ للصقالبة والجهات التي في شمال أسيا وشرقها.

فالرعب العاربة هم أولاد سام الذين كانوا في جزيرة العرب.

قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ الْأُولَىٰ يعني: القديمة، ﴿وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾﴾، لأن عادًا وثمود كانت العرب تضرب المثل بهما في القوة، ثمود نَحَتُوا الجبال، وعَادٌ أخبرنا القرآن عنهم: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾﴾ [الفجر]، يعني: خَرَقُوا الصَّخْرَ بالواد، فَنَبَّهَ عليهما لِعِظَمِهما.

فإذا كان الله جل وعلا أهلكَ عادًا وثَمُود فإن غيرهم أهونُ، وإنَّ غيرهم يجب عليه أن يخاف، فهٰذه آثار عاد، وآثار ثمود يَعْلَمُهَا الْعَرَبُ ويَمُرُّونَ عليها، فأين التَّذْكِرَةُ، وأَيْنَ الْعِبْرَةُ، وأين الْخَوْفُ من تكذيب

الرسول.

لا شك أن ذِكْرَ قِصَصِ الأولين وإهلاك الله جل وعلا للأولين لَا بُدَّ أن يكون معه الفائدة المرجوة، وهيٰ: أنهم حَاقَ بهمُ الْعَذَابَ لتكذيب الرسالة، فلذلك يجب علىٰ المرء أن يخاف من أن يُكَذِّبَ الرسل، كذلك المجتمعات والأمم إذا كَذَّبَتِ الرسل فيحق عليهم وَعِيدُ الله جل وعلا كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [النحل].

قوله: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ قوم نوح أُهْلِكُوا جميعا، وجعل الله جل وعلا البقاء لذريةِ نُوحٍ، ونَصَرَ نُوحًا وأَعَزَّهُ وأهلك أعداءه.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾﴾ هم أظلمُ لأنهم تَنَوَّعُوا في عِبَادَةِ غير الله جل وعلا، وأَظْلَمُ لأنَّ نُوحًا مَكَثَ فِيهِمْ زَمَنًا طَوِيلًا ألف سنة إلا خمسين عاما، ومع ذلك لم يستجيبوا له، فَتَنَوَّعَتْ عليهم الْحُجَّةُ من جِهةِ قَوَّتِهَا، ومن جِهَةِ طُولِ الزَّمانِ، ومن جهة طُولِ التَّمْهِيلِ لهم كي يَرْجِعُوا، وأن يستجيبوا، ولكن لم يستجيبوا فكانوا هم أظلمَ وأُطْغَىٰ من غيرهم.

و﴿أَظْلَمَ﴾ منصوبة لأنها خَبَرُ كَانَ، و﴿هُمْ﴾ التي بين اسم كان وبين خبرها يقال لها: ضَمِيرُ العماد لا محل له من الإعراب، يعني: أنه لا يُعْرَبُ، وليس اسما وما بعده خبر، فإذا جاءت هم بين اسم كان وبين خبرها، فإن ما بعدها يكون مَنْصُوبًا، ولا يكون مَرْفُوعًا، وهٰذا كثير في القرآن كما قال جل وعلا: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأعراف]، وكما في قوله جل وعلا: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال]، فقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ فـ﴿هو﴾ هنا يُسَمَّىٰ ضمير العماد أو ضمير الفصل، تفصل ما بين المبتدإ والخبر بشروط من أهمها:

ألا يَشْتَبِهَ الخبرُ بالنَّعْتِ قبل أن تَدْخُلَ علىٰ المبتدأ والخبر العواملُ المختلفة، مثلا تقول: القومُ الْخَاسِرُونَ، تَشْتَبِهُ الخاسرون هل هي نعت، وسيأتي خبر ؟ فإذا قال: القوم هم الخاسرون. صارتْ فَصْلًا وعِمَادًا، فَصَلَتْ بين المبتدأ والخبر وبَيْنَ اشتباه الصفة. وهٰذا البحث معروف في النحو.

وعند سيبويه يجيز علىٰ لغة من لُغَاتِ العرب جائز أن يكون ما بعدها مرفوعًا، وقد جاء في بعض القراءات، لكنَّ الأفصحَ والأكْثَرَ أن يكون ما بعدها خَبَرًا لما قَبْلَهَا، وليس خَبَرًا لها.

قوله: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾﴾ الْمُؤْتَفِكَةُ هِيَ قُرَىٰ قَوْمِ لوطٍ، والمؤتفكة صفة، سُمِّيَتْ مؤتفكة لأنها قُلِبَتْ عليهم، وهٰذا من تَسْمِيَةِ الشيءِ باسم ما حَصَلَ له، والمؤتفكة والْمُؤْتَفِكَاتُ هٰذه صفة لهم، وقال آخرون: سُمِّيَتْ مؤتفكة لأنهم كانوا يَمْشُونَ بالإِفْكِ، وهو الْكَذِبُ البَيِّنُ الواضحُ، وهي مؤتفكة، والجمع مؤتفكات وكلاهما في القرآن.

قوله تعالىٰ: ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾ يعني: من العذاب.

قوله تعالىٰ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ تَتَمَارَىٰ معناها: تَشُكُّ، أو تُمَارِي فيه، وآلاء الله جل وعلا دالةٌ علىٰ اليقين، وليس ثَمَّ شيء في هٰذا الملكوت يدل علىٰ الشَّكِّ، أو يبعث عليه، بل كُلُّ الدلائلِ تَدَلُّ علىٰ أن الله سبحانه هو الذي خَلَقَ، وهو الذي قَامَ بالخلق، وأن العبادَ مَخْلُوقُونَ لله، فواجبٌ أن يعبدوه.

دلائل الله في الْأَنْفُسِ، وفي الآفاق، في السماء، في الأرض أينما تَوَجَّه الْبَصَرُ يَجِدُ الدَّلِيلَ علىٰ أن الله سبحانه هو وَلِيُّ النِّعْمَةِ، ولهٰذا وجب التفكر في آلاء الله وفي مخلوقات الله، وفي نعم الله، والتفكر من حيث الجنس واجب لأن الله جل وعلا أَمَرَ به.

من الذي يشك أو يماري ؟ هو الإنسانُ، ليس الخطابُ للنبي ﷺ؛ ذكر لك القولين، والصحيح منهما الثاني؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام لم يَشُكَّ، كما جاء في قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس:٩٤] جاء في أحد أوجه تفسيرها: أن النبي ﷺ لما أنزلت قال: «لَا أَشُكُّ، وَلَا أَسْأَلُ».

الدرس الحادي عشر

﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴿٦١﴾ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴿٦٢﴾﴾

﴿هَٰذَا نَذِيرٌ﴾ يَعْنِي: مُحَمَّدًا ﷺ ﴿مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ ﴿٥٦﴾﴾ أَيْ: مِنْ جِنْسِهِمْ، أُرْسِلَ كَمَا أُرْسِلُوا، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ [الْأَحْقَافِ: ٩].

﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾﴾ أَيِ: اقْتَرَبَتِ الْقَرِيبَةُ، وَهِيَ الْقِيَامَةُ، ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾﴾ أَيْ: لَا يَدْفَعُهَا إِذَا مِنْ دُونِ اللهِ أَحَدٌ، وَلَا يَطَّلِعُ عَلَىٰ عِلْمِهَا سِوَاهُ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ مُنْكِرًا عَلَىٰ الْمُشْرِكِينَ فِي اسْتِمَاعِهِمُ الْقُرْآنَ وَإِعْرَاضِهِمْ عَنْهُ وَتَلَهِّيهِمْ: ﴿تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ مِنْ أَنْ يَكُونَ صَحِيحًا، ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ مِنْهُ اسْتِهْزَاءً وَسُخْرِيَةً، ﴿وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾﴾ أَيْ: كَمَا يَفْعَلُ الْمُوقِنُونَ بِهِ، كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الْإِسْرَاءِ].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴿٦١﴾﴾ قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: الْغِنَاءُ، هِيَ يَمَانِيَّةٌ، اسْمِد لَنَا: غَنِّ لَنَا. وَكَذَا قَالَ عِكْرِمَةُ.

وَفِي رِوَايَةٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿سَامِدُونَ﴾: مُعْرِضُونَ. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ، وَعِكْرِمَةُ. وَقَالَ الْحَسَنُ: غَافِلُونَ. وَهُوَ رِوَايَةٌ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ. وَفِي رِوَايَةٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: تَسْتَكْبِرُونَ. وَبِهِ يَقُولُ السُّدِّيُّ.

ثُمَّ قَالَ آمِرًا لِعِبَادِهِ بِالسُّجُودِ لَهُ وَالْعِبَادَةِ الْمُتَابِعَةِ لِرَسُولِهِ ﷺ وَالتَّوْحِيدِ وَالْإِخْلَاصِ: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴿٦٢﴾﴾ أَيْ: فَاخْضَعُوا لَهُ وَأَخْلِصُوا وَوَحِّدُوا.

قَالَ الْبُخَارِيُّ: حَدَّثَنَا أَبُو مَعْمَرٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَارِثِ، حَدَّثَنَا أَيُّوبُ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ بِالنَّجْمِ، وَسَجَدَ مَعَهُ الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ. انْفَرَدَ بِهِ دُونَ مُسْلِمٍ.

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ خَالِدٍ، حَدَّثَنَا رَبَاحٌ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنِ ابْنِ طَاوُسٍ، عَنْ عِكْرِمَةَ بْنِ خَالِدٍ، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ الْمُطَّلِبِ بْنِ أَبِي وَدَاعَةَ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَكَّةَ سُورَةَ النَّجْمِ، فَسَجَدَ وَسَجَدَ مَنْ عِنْدَهُ، فرفعتُ رَأْسِي وأبيتُ أَنْ أسجد، ولم يكن أسلم يومئذ المطلب، فَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ لَا يَسْمَعُ أَحَدًا يَقْرَؤُهَا إِلَّا سَجَدَ مَعَهُ.

وَقَدْ رَوَاهُ النَّسَائِيُّ فِي الصَّلَاةِ، عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عَبْدِ الْحَمِيدِ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ، بِهِ.

ذِكْرُ حَدِيثٍ لَهُ مُنَاسِبَةٌ بِمَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ ۝٥٦ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ۝٥٧﴾، فَإِنَّ النَّذِيرَ هُوَ: الْحَذَرُ لِمَا يُعَايِنُ مِنَ الشَّرِّ، الَّذِي يُخْشَىٰ وُقُوعُهُ فِيمَنْ أَنْذَرَهُمْ، كَمَا قَالَ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٤٦﴾ [سبأ]. وَفِي الْحَدِيثِ: «أَنَا النَّذِيرُ العُريان» أَيِ: الَّذِي أَعْجَلَهُ شِدَّةُ مَا عَايَنَ مِنَ الشَّرِّ عَنْ أَنْ يَلْبَسَ عَلَيْهِ شَيْئًا، بَلْ بَادَرَ إِلَىٰ إِنْذَارِ قَوْمِهِ قَبْلَ ذَلِكَ، فَجَاءَهُمْ عُريانا مُسْرِعًا مُنَاسِبٌ لِقَوْلِهِ: ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ۝٥٧﴾ أَيِ: اقْتَرَبَتِ الْقَرِيبَةُ، يَعْنِي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا قَالَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ الَّتِي بَعْدَهَا: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ [الْقَمَرِ: ١]، قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ:

حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ عِيَاضٍ، حَدَّثَنِي أَبُو حَازِمٍ -لَا أَعْلَمُ إِلَّا عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّمَا مَثَلُ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا بَطْنَ وَادٍ، فَجَاءَ ذَا بِعُودٍ، وَجَاءَ ذَا بِعُودٍ حَتَّىٰ أَنْضَجُوا خُبْزَتهم، وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتَىٰ يُؤْخَذْ بِهَا صَاحِبُهَا تُهْلِكْهُ». وَقَالَ أَبُو حَازِمٍ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ -قَالَ أَبُو ضَمْرَة: لَا أَعْلَمُ إِلَّا عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ- قال: «مثلي ومثل السَّاعَةِ كَهَاتَيْنِ» وَفَرَّقَ بَيْنَ أُصْبُعَيْهِ الْوُسْطَىٰ وَالَّتِي تَلِي الْإِبْهَامَ، ثُمَّ قَالَ: «مَثَلِي وَمَثَلُ السَّاعَةِ كَمَثَلِ فَرَسَي رِهَان»، ثُمَّ قَالَ: «مَثَلِي وَمَثَلُ السَّاعَةِ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَعَثَهُ قَوْمُهُ طَلِيعَةً، فَلَمَّا خَشِيَ أَنْ يُسْبَقَ أَلَاحَ بِثَوْبِهِ: أُتِيتُمْ أُتِيتُمْ». ثُمَّ يَقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَنَا ذَلِكَ». وَلَهُ شَوَاهِدُ مِنْ وُجُوهٍ أُخَرَ مِنْ صِحَاحٍ وحِسان. وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ، وَبِهِ الثِّقَةُ وَالْعِصْمَةُ.

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ النَّجْمِ ولله الحمد والمنة

هٰذه الآيات فيها تَقْرِيرُ الرِّسَالَةِ، وقُرْبُ الْقِيَامَةِ، والعجب من الناس كيف لا يهتمون بأمر آخرتهم.

قوله جل وعلا: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ ۝٥٦﴾ معناه: أنه من جِنْسِ الْمُنْذِرِينَ الأَوَّلِينَ، والنُّذُرُ جمعُ نَذِيرٍ، والنَّذِيرُ صِيغَةُ مُبَالَغَةٍ من اسم الفاعل مُنْذِر، لأن الْفِعْلَ أَنْذَرَ يُنْذِرُ، فَهُو مُنْذِرٌ ونَذِيرٌ، وكلمة الإنذار في اللغة تَعْنِي الإعلامَ بشيء يُخَافُ مِنْهُ، وليس بَعْدَهُ مُهْلَة للتَّصْحِيحِ، أو لَيْسَ بَعْدَهُ مهلة طويلة يمكن معها تدارك الأمر، بل يجب تدارك الأمر فورًا، فالْعَرَبُ لها في الإعلام ثلاث مراتب: إخبار، وإشعار، وإنذار.

فالإخبار: مَعَهُ السَّعَة.

والإشعار: فَوْقَهُ.

والإنذار: لِمَا قَرُبَ وقُوعُهُ.

هٰذا هو المشهور، وبعض أهل اللغة قالوا: إن الإنذار يكون بعده مدة يسع فيها التصحيح، واستدلوا عليه بقول الشاعر:

أنــذَرْتُ عَمْــرًا وهــو في مَهَــل ... قَبْـلَ الصَّـبَاح فقـد عصـىٰ عَمْـرُو

فجعل الإنذار بعده مدة يتمهل فيها حتىٰ يَسْتَدْرِكَ، والأنبياء نُذُرٌ وإنذار الأنبياء نوعان: إنذار عام، وإنذار خاص.

فالإنذار العام: لجميع من أُرْسِلُوا إليه، كُلٌّ حَسَب رسالته.

والإنذار الخاص: لِمَنِ انْتَفَعَ بإنذارهم، حتىٰ إنَّ الْمُنْتَفِعَ يُخَصُّ بالإِنْذَارِ وكأنه لم يُنْذَرْ غَيْرُهُ.

فمن الإنذار العام: قول الله جل وعلا: ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ۝٣٦﴾ [المدثر]، وقوله تعالىٰ: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾ [يس].

ومن الإنذار الخاص: قوله جل وعلا: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۝١١﴾ [يس] وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ [فاطر:١٨]، ونحو ذلك مِمَّا فيه أن الْمُنْذَرَ هو الْمُنْتَفِعُ، فلا فَرْقَ بين الآيات التي فيها الإِنْذَارُ عَام والآيات التي فيها الإِنْذارُ خاص، فإذا خُصَّ بالإنذار قوم في بعثة محمد عليه الصلاة والسلام فإنما لأجل أنهم انْتَفَعُوا بذلك، وإلا فنِذَارَتُهُ عليه الصلاة والسلام عَامة.

وقوله جل وعلا هنا: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ۝٥٦﴾ يعني: من جِنْسِهِمْ أَنْذَرَ بما أَنْذَرُوا، وخَوَّفَ ما خَوَّفُوا، وحَذَّرَ ما حَذَّرُوا، وأنتم أيها العرب الذين أُرسل إليكم محمد عليه الصلاة والسلام فيمن أرسل إليه تُصَدِّقُونَ بالنُّذُرِ الأولىٰ فما الفرق بين هٰذا النذير ومن قبله، ولهٰذا قال: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ۝٥٦﴾ في إقامة الحجة عليهم، فأَنْتُمْ تُصَدِّقُونَ بالنُّذُرِ الأُولَىٰ، تُصَدِّقُونَ بموسىٰ، وعيسىٰ، وصالح، ونوح، وإبراهيم، وتنْتَسِبُونَ إلىٰ إبراهيم، وهٰذا نذير من جِنْسِهِمْ، كما قال سبحانه آمرًا نَبِيَّهُ أن يقول لهم: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ [الأحقاف:٩]، أي: لَسْتُ أَوَّلَ رسول يُرْسَلُ ولا أول نَذِيرٍ يُنْذِرُ حتىٰ يَلْتَبِسَ الأمر عليكم، بل سَبَقَنِي مُنْذِرُونَ، ومُرْسَلُونَ صَدَّقْتُمْ بِهِمْ وتَفَاخَرْتُمْ ببعضهم.

ففي قوله: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ۝٥٦﴾ إقامة للحجة عليهم، وأنه ليس لديهم فرق إلا الهوىٰ بين

محمد -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- وبين من أرسل قبله من إخوانه المرسلين.

في الإشارة بالقريب في قوله: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ﴾ ما يُنَبِّهُ عن قُرْبِهِ عليه الصلاة والسلام من رَبِّهِ جل وعلا، وأنه عليه الصلاة والسلام له المكانة العالية عند الله جل وعلا، وعند المؤمنين، وهٰذا من لَطَائِفِ المعاني التي يَقْتَضِيهَا عِلْمُ المعاني في البلاغة.

قال: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾﴾ أَزِفَتْ يعني: اقتربت.

الآزِفَةُ: القَرِيبَةُ التي اقتربت، ففي قوله: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾﴾ تأكيد علىٰ قُرْبِهَا. يعني: اقتربت الْقَرِيبَةُ فهي قَرِيبَةٌ واقتربت، وهٰذا له نظائر في القرآن كثيرة، كقوله جل وعلا: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾﴾ [القمر]، وكقوله تعالىٰ: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل:١] ونحو ذلك.

إنَّ قُرْبَ الساعةِ يَقْتَضِي الْحَذَرَ، والتعقيب علىٰ الإنذار بالاقتراب يُخَوِّفُ من الإنذار في قوله: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾﴾ يعني: اقتربت القيامة التي فيها الحساب، وهٰذا نذير ينذر القيامة، فناسب مَجِيء ذكر قرب القيامة بعد الإنذار، وهٰذا يناسب الْمَعْنَىٰ للإنذار بأنه ليس بعده مدة طويلة، لِيَسْعَىٰ مَعَهَا للتصحيح؛ بل يجب أن يُسَارِعَ فيه كإسراع الذي ليس عليه لِبَاسٌ لو تأخر، ولو لَبِسَ رُبَّمَا فات الأمر فخرج عُرْيَانًا من مَحَبَّتِهِ لقومه، وخوفه عليهم، ينذرهم بأس الله جل وعلا أو ينذرهم ويخوفهم مما يَرْهَبُونَ.

قال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾﴾ الكشف نوعان:

كَشْفٌ حِسِّيٌّ، وكَشْفٌ مَعْنَوِيٌّ.

أما الكشف الْحِسِّيُّ: فَهُو ككشفِ الشيء الْحِسِّيِّ الْمَلْمُوسِ، الكشف عن الكتاب، الكشف عن الْمُغَطَّىٰ، ونحو ذلك من الذوات.

وأما الكشف المعنوي: فهو الْكَشْفُ عن الْأَمْرِ، ومعناه أنه انتهىٰ إليه وعُلِمَ به، والآية من الكشف المعنوي.

فَمَعْنَىٰ الآية: لا أحدَ يَعْلَمُهَا إلا الله جل وعلا، ولا أَحَدَ يَكْشِفُ أَمْرَهَا الْمُغَطَّىٰ إلا الله جل جلاله، كما قال ﷻ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾ [النازعات]، وكما قال جل وعلا في آخر الأعراف: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا

تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ [الأعراف:١٨٧].

فالساعة لا أَحَدَ يَعْلَمُهَا إلا الله جل وعلا، لا تَأْتِيكُمْ إلا بَغْتَةً، والنَّفْخُ فِي الصُّورِ كما قال النبي ﷺ: «لَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْغَىٰ لِيتًا وَرَفَعَ لِيتًا يعني: حَافَّتَي العنق، وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ، فَيَصْعَقُ، وَيَصْعَقُ النَّاسُ» يعني: ما لَبِثَ أن سَمِعَ حَتَّىٰ صُعِقَ، فالساعة تأتي بغتة، ولها أَشْرَاطٌ، ولها علاماتٌ، ولا تقوم إلا علىٰ شِرَارِ الْخَلْقِ.

ثم قال تعالىٰ: ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ معنىٰ الحديث في الآية: القرآن. فالقرآن حديث باعتبار أنه يُتَنَاقَلُ، وحديثٌ باعتبار أنه أُنْزِلَ من الله جل وعلا حَدِيثًا كما قال ﷻ: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ ﴾[الأنبياء]، وكما قال في آية الشعراء: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [الشعراء]، فَهُو مُحْدَثٌ باعتبار أن نُزُولَهُ حديث، وليس بقديم.

فالاستفهام في قوله تعالىٰ: ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ للإنكار عليهم، لأَنَّهُمْ عَجِبُوا من هٰذا الحديث، والفاء بعد الهمزة للعطف علىٰ جملة محذوفة تقديره: أَتُعْرِضُونَ عن هٰذا النَّذِيرِ، ومن هٰذا الحديث تَعْجَبُونَ، أو: أَتَشُكُّونَ فِي صِدْقِهِ.

ثم قال: ﴿ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ فيه دليل علىٰ عدم قُبُولِ الإنذار، وأنهم لم يرفعوا بالإِنْذَارِ رَأْسًا ولم يَهْتَمُّوا له، فَيَضْحَكُونَ ولا يَبْكُونَ، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «وَاللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَىٰ الفُرُشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَىٰ الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَىٰ اللهِ» فمن علم حقيقة الأَمْرِ بَكَىٰ ولم يضحك، والضَّحِكُ وقت الإنذار دليل التَّكْذِيبِ، والاستعداد مع الإنذار دليل التصديق.

﴿ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ يعني: حين إنزال القرآن، أو حين سماعه، أو حين الإنذار.

قوله: ﴿ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ الواو حالية، يعني: والحال أنكم سَامِدُونَ تُغَنُّونَ، أو تُعْرِضُونَ، أو تَتَكَبَّرُونَ، كل هٰذه الأقوال متقاربة، فإن الغِنَاءَ معه الإعراض، والْإِعْرَاضُ أَوْسَعُ، والإعراض يؤدي إلىٰ الْكِبْرِ، فالأقوال هنا من باب اختلاف التَّنَوُّعِ واختلاف اللهجات.

فقولهم: السُّمُودُ هو الغناء بلغة حِمْيَر. سَمَدَ أي: غَنَّىٰ. وقولهم: أَسْمِدْ لَنَا. أي: غَنِّ لنا. والسُّمُودُ

بمعنىٰ الإِعْرَاضِ.

قال جل وعلا: ﴿فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ ۩ ﴿٦٢﴾﴾ وهٰذا أَمْرٌ بالسُّجُودِ له جل وعلا، وعبادة الرب جل وعلا وَحْدَهُ دُونَمَا سَوَاهُ.

السُّجُودُ لُغَةً: الْخُضُوعُ، وقد يكون بِحَرَكَةٍ وبِغَيْرِ حَرَكَةٍ، فالسجود له حالات في لغة العرب:

السجود المعروف في الصلاة هٰذا غَايَةُ الذُّلِّ، وغَايَةُ الْخُضُوعِ أن يجعل المسلم رأسه تَتَعَفَّرُ بالتُّرَابِ علىٰ الأرض خُضُوعًا لمن عَظَّمَهُ.

والركوع سجود أيضا، قال تعالىٰ: ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ [البقرة:٥٨] يعني: رَاكِعِينَ.

والسجود شَرْعًا: خُصَّ بالسجود المعروف، ولا يدخل الركوع في السجود.

أما سجود الكائنات لله جل وعلا كقوله تعالىٰ: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ ﴾ [النحل:٤٩]، وكقوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد:١٥] ونحو ذلك، سجود الكائنات لله جل وعلا يكون بالاعتبارين: قد يكون سُجُودًا عن حركة مناسبة، وقد يكون سجودًا بِخُضُوعٍ عام لله جل وعلا، لهٰذا جاء في الصحيح أن النبي عليه الصلاة والسلام قال في الشمس إذا غربت: «إِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّىٰ تَسْجُدَ تَحْتَ العَرْشِ، فَتَسْتَأْذِنَ فَيُؤْذَنُ لَهَا وَيُوشِكُ أَنْ تَسْجُدَ، فَلاَ يُقْبَلَ مِنْهَا، وَتَسْتَأْذِنَ فَلاَ يُؤْذَنَ لَهَا يُقَالُ لَهَا: ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَطْلُعُ مِنْ مَغْرِبِهَا». فالشمس، والقمر، والكواكب، والكائنات، والشجر، والجبال كلها تسجد لله عَزَّوَجَلَّ، كما في قال تعالىٰ في سورة الحج: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ [الحج:١٨].

هٰذا قول أهل السنة في سُجُودِ الكائنات، والمتكلمون كالمعتزلة والأشاعرة في تفاسيرهم يجعلون السجود ظهورَ آثارِ الصَّنْعَةِ في هٰذه الكائنات، أي: هٰذه الكائنات تدل علىٰ ربها جل وعلا وعلىٰ خلقه لها، وعلىٰ أنها آية، هٰذا معنىٰ أنها تسجد وأنها تسبح.

وأما أهل السنة فَهُمْ يؤمنون بالأخبار علىٰ ظاهرها، وعلىٰ ظاهر ما دلت عليه اللغة، ففي الكائنات تستعمل الحقيقة اللغوية، فلهٰذا نقول: سجود الكائنات لله جل وعلا بمعنىٰ غاية الخضوع، مع غاية الذُّلِّ لله جل وعلا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت].

وسجود الكائنات يكون بالحركة كما في حديث الشمس السابق.

في هٰذا الموضع ذكر حديث سجود الجن والإنس والمشركين والمسلمين لما قرأ النبي ﷺ هٰذه الآية وهٰذا ثابت في الصحيح، وذكر أن رجلا لم يسجد وأخذ قطعة من تراب وسجد إليها، ثم أسلم، وهٰذا الحديث ضَعَّفَهُ طائفة من أهل العلم بما جاء في حديث البخاري من أن الذي لم يسجد قُتِلَ كَافِرًا.

وقد يُحْمَلُ علىٰ التَّعَدُّدِ لأن الذي قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ رَفَعَ كَفًّا من تراب إليه، وهٰذا أيضا أخبر عن نَفْسِهِ، وهو أَوْلَىٰ من تَضْعِيفِ المتن بالمعارضة، فيبقىٰ البحث في قوة إسناد حديث المطلب بن حنظل.

المسألة الثانية: في هٰذا الموضع يذكر طائفة من أهل العلم قِصَّةَ الغَرَانِيقِ المشهورة وهي: أَن النَّبِي ﷺ كَانَ بِمَكَّة فَقَرَأَ سُورَة النَّجْم حَتَّىٰ انْتَهَىٰ إِلَىٰ قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ أَلْقَىٰ الشَّيْطَانُ عِنْدَهَا كلماتٌ حِينَ ذَكَرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ آخر الطواغيت فقال:« وإِنَّهُنَّ الْغَرَانِيقُ الْعُلَىٰ، وإن شَفَاعَتَهُنَّ لهي التي تُرْتَجَىٰ» وكان ذلك من سَجْعِ الشيطان وفِتْنَتِهِ، فوقعت هاتان الكلمتان في قلب كل مُشْرِكٍ بمكة، وزَلَّتْ بها ألسنتهم وتَبَاشَرُوا بها، وقالوا: إن محمدًا قَدْ رَجَعَ إلىٰ دينه الأول ودين قومه.

وهٰذه القصة أكثر العلماء علىٰ ثبوتها من جهة الإسناد، وعلىٰ أنها لا غَرَابَةَ فيها من جهة المتن.

أما من جهة الإسناد فالبحث فيها يطول، فقد رُوِيَتْ من أوجه مرسلة متعددة صحيحة إلىٰ التابعي الذي أرسل، وقد اسْتَفَاضَ فيها الحافظ ابن حجر، في شرحه للبخاري، ورد علىٰ من تَجَرَّأَ فأنكرها، وهو أبو بكر ابن العربي، فقال: (وقد تَجَرَّأَ أبو بكر ابن العربي كعادته فأبطل هٰذه القصة)، ثم ذكر الأسانيد وقال: (لكن كَثْرَة الطُّرُقِ تدل علىٰ أن للقصة أصلا) ثم قال: (وهي مراسيل يُحْتَجُّ بمثلها من يَحْتَجُّ بالمرسل، وكذا من لا يحتج به لاعْتِضَادِ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ) اهـ.

ومن المتقرر عند علماء الحديث أن المرسل إذا عَضَدَهُ مرسل فإنه يَقْوَىٰ، كما نص عليه الشافعي في الرسالة، وأن الْمُرْسَلَ إذا تعددت طُرُقُهُ فإنه يكون حَسَنًا، وهٰذا من جهة الإسناد، وفيها بحث ليس المقام مناسبًا لتفصيل الكلام فيه.

أما من جهة المتن فالمتن ليس فيه غَرَابَةٌ، فإن إلقاء الشيطان هٰذه الكلمات علىٰ لسان رسول الله ﷺ جِنْسُهُ جاء في القرآن، في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ تَمَنَّىٰ يعني: تَلَا وقرأ: ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ يعني: في تلاوته، فالْأُمْنِيَّةُ هي التلاوة والقراءة، يعني: ألقىٰ كلامًا في أمنيته ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾[الحج:٥٢]، فكل رسول، وكل نَبِيٍّ ابْتُلِيَ بذلك،

والشيطان ألقىٰ في أمنيته، ومعلوم أن إلقاء الشيطان في التلاوة قد يكون بأحد أمرين:

الأول: صَوْتُ الشيطان، أو بأي صوت، فإذا كان بصوت الشيطان فإنه سيعرف أنه ليس مما يُتْلَىٰ، وليس من كلام النبي، وهٰذا غير وارد؛ لأنه لا يحصل به الابتلاء.

والثاني: أن يكون بصوت النبي، وهو الذي جاء في قصة الغَرَانِيقِ في قوله: ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ علىٰ لِسَانِهِ يَعْنِي: بصوته، فَقَلَّدَ صوتَ النبي عليه الصلاة والسلام وذلك علىٰ ظاهر قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾.

فهٰذه القصة يوردها العلماء في التفسير، وفي كتب الحديث، وفي شروحه، وليس فيها من جهة المتن ما يدعو إلىٰ إبطالها، وليس فيها ما يُضَادُّ التوحيد، ولا ما ينافي عصمة النبوة، نعم في بعض طرقها الواهية ما هو مُنْكَرٌ، لكنَّ الْقَدْرَ الذي ذكرته ثابت من أوجه مرسلة يعضدُ بعضها بعض.

فعند ذكر هٰذه القصة ينبغي علىٰ طالب العلم عموما فيما يسمع، أو يقرأ أن لا يبادر بالاعتراض علىٰ أهل العلم الراسخين فيه، فيما يُقَرِّرُونَ أو يقبلون من الروايات، بل يجب عليه أن يَتَمَهَّلَ، وأن يطالع، وألَّا يعجل بالإنكار؛ بل يتأنىٰ ويتأنىٰ حتىٰ يَسْتَبِينَ له وجه كلام أهل العلم خاصة إذا كانوا من أئمة السُّنَّةِ والراسخين في العلم المقْتَدَىٰ بهم، لأن الله جل وعلا يقول: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يوسف]، فَطَالِبُ العلم قَدْ تُشْكِلُ عليه المسألة، وقد يَسْتَغْرِبُ من صَنِيعِ بعض أهل العلم، لأن معرفة الإشكال عِلْمٌ، وكشف الإشكال عِلْمٌ آخر كما قال القرافي في «الفروق»، لما ذكر في قاعدة الكبائر والصغائر، وتعريف الكبيرة والصغيرة وأورد إشكالا، قال: (فَحَظِّي مِنْهُ مَعْرِفَةُ إشْكَالِهِ فَإِنَّ مَعْرِفَةَ الْإِشْكَالِ عِلْمٌ فِي نَفْسِهِ) وهٰذا صحيح؛ لأن لا يستشكل إلا طالب علم، ومعلوم أن الشريعة سواء مما جاء في الكتاب والسنة أو في كلام أهل العلم فيها ما يُشْكِلُ، لكن ما يُشْكِلُ يُكْشَفُ عنه، وإذا أشكل فلا يلزم أن يكشف عنه في ساعة، أو يوم، أو يومين، أو شهر، أو سنة، فقد بَقِيَتْ بعض المسائل عند طائفة من أهل العلم سنين عددًا، ولم تكشف لهم حتىٰ استبان لهم، ففي موضع قال الحافظ ابن حجر فيه: (وبقيت هٰذه في نفسي ثلاثين سنة حتىٰ أزال الله الإشكال) وهٰذا حسن أن يكون طالب العلم مُتَأَنِّيًا غيرَ عجل في مسائل العلم، أو في انتقاد أهل العلم.

سؤال: مَنْ مِنْ أهل العلم من صحح هٰذه القصة غير الحافظ ابن حجر ؟

الجواب: لماذا تُرِيدُ غَيْرَ الحافظ، لا هِجْرَةَ بعد الفتحِ، إن الحافظ إذا بحث المسألة وكانت حديثية، فهو حُجَّةٌ.

سؤال: ما قولكم فيما ذكره الشيخ الأمين الشنقيطي في «أضواء البيان» في هٰذه المسألة ؟

الجواب: إننا لم نقل إن أبا بكر ابن العربي فقط هو الذي تكلم في المسألة فقط، بل ذكرنا أن الحافظ ابن حجر قال عن إنكار أبي بكر بن العربي ما قال، فالمصطلح، والحديث، والتخريج، والتصحيح والتضعيف فَنُّهُ، أما الشيح الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ فليس فَنُّهُ الحديث ولا الرواية، وإنما فَنُّهُ التفسير واللغة والأصول، يعني: علوم الآلة ما عدا مصطلح الحديث والتخريج والرجال، إذا عَرَضَ للرجال فهو يَعْرِضُهَا من جهة المطالعة لا من جهة الْمَلَكَةِ، أمَّا الحافظُ ابن حجر فيعرض من جهةِ الْمَلَكَةِ.

فحينما ننظر في (التقريب) نجد أن الحافظ يأتي في رجال ويقول عنهم: ثقة، وترجع إلىٰ التهذيب تَجِدُ أنه لم يُوَثِّقْهُ إلا ابن حِبَّان مثلا، أو ابن شاهين، ممن يوثق المجاهيل، وفي آخر نجده يقول: ضعيف، ولم يوثقه إلا ابن حبان، وفي ثالث نجده يقول: مقبول، أي: لم يضعفه أحد، إنما جاء في ترجمته في التهذيب توثيق ابن حبان، وفي ثالث نجد أنه قال: مقبول أيضا في ترجمته، لم يوثقه إلا ابن حبان، فالحافظ في علوم الحديث، ليس قارِئًا ولا مفتشا، بل هو يستحضر الروايات، وينظر بنظر أهل العلم الراسخين فيه، علىٰ العموم من نَحَىٰ مَنْحَىٰ الحافظ ابن حجر قد أوىٰ إلىٰ ركن وثيق.

۞۞۞۞